

رحلة .. الأمير رولف إلى الشرق

ترجمه ودراسة
د. عبدالرحمن عبداللہ شيخ

الألف
كتاب
الشاف
١٩٧



الجزء الأول



الهيئة المصرية العامة للكتاب

رحلة..
الأمير ردولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

رحلة...
الأمير ردولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الجزء الأول

صاحب السمو الإمبراطوري والملك
الأمير ردولف

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

TRAVELS IN THE EAST

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة العربية	٧
الفصل الأول	٣١
الفصل الثانى	٥٣
الفصل الثالث	١٠٧
تعليقات المترجم عن الفصل الأول	١٤١
تعليقات المترجم عن الفصل الثانى	١٤٧
تعليقات المترجم عن الفصل الثالث	١٥٦

مقدمة الترجمة العربية

قام الأمير ريدولف (صاحب السمو الامبراطورى والملكى) وهو أحد الأمراء المهمين من آل هابسبرج، برحلته فى عهد الخديو اسماعيل، وقد قطع مصر من ادناها الى اقصىها، فزار الاسكندرية وسواحل مصر الشمالية، والقاهرة والفيوم (وهو ما نقدمه فى هذا الجزء) وتوغل فى جميع مصر حتى اسوان، فوصف رحلته النيلية والظواهر الجغرافية، وابدى انبهارا بأثار «مصر المقدسة» على حد تعبيره، وعاد من اسوان ليمكث فى القاهرة فترة أخرى ثم يتوجه الى بورسعيد، ويقطع قناة السويس، ويتجول فى البحر الأحمر (وهو ما نقدمه للقارئ فى الجزء الثانى)، ثم يتوجه الى الشام ويزور بعض موانئها ويتجه للقدس الشريف، ثم يعود الى فيينا (وهو ما نقدمه فى الجزء الثالث).

والرحلة ممتعة وغاصة بالمعانى والتلميحات ذات الدلالة، وبالنسبة لمن يقرءون الرحلات كمصدر للتاريخ السياسى والاجتماعى، لابد أن نذكر لهم توطئة أو دراسة تفسر كثيرا من المصطلحات والأمرور الواردة بها.



قد يكون أول ما يلفت النظر هو لقب «الأمير» صاحب السمو الامبراطورى والملكى، فقد تمت الرحلة والنمسا والمجر تشكلا كيانا سياسيا واحدا عرف بالمملكة الثنائية أو مملكة النمسا والمجر، وكان لكل منهما دستور مستقل وحكم ذاتى، أما السياسة الخارجية وأمرور الدفاع فمن اختصاص امبراطور النمسا والمجر، وهو الرمز الذى يجمع الملكتين وتوابعهما فى كيان واحد، فالأمير ريدولف اذن صاحب سمو امبراطورى لأنه من آل هابسبرج، وقريب للامبراطور فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر وتوابعهما فى ذلك الوقت (استطعنا الحصول على صورة معبر قلبه ألحقناها بالفصل الثانى)، والأمير ريدولف فى الوقت نفسه من أمراء النمسا أو مملكة النمسا، فهو اذن صاحب «السمو الملكى».



لقد رسم الساسة المجتمعون فى مؤتمر فينا الشهير (١٨١٤ - ١٨١٥) خريطة أوروبية جديدة ، يهدف اتقاء أخطار تاتى من فرنسا ، كتلك الأخطار التى صدرت عنها بسبب ثورتها الشهيرة وما تلاها من تتابعات ، فحوصرت فرنسا بمجموعة من الدول الحاجزة ، وعمل الساسة المجتمعون على الشد من أزر النمسا حتى يسود الاتجاه المحافظ فى أوروبا ، باعتبار النمسا من أهم الكيانات الأوروبية المحافظة التى تحكمها اسرة عريقة تهددها اية أفكار ثورية . ومن هنا فقد جعل مؤتمر فينا من نصيبها شمال ايطاليا ووسطها ، وتريست والساحل الدلماسى (دالماسيا) . وظهرت النمسا بعد مؤتمر فينا كرئيسة لانحداد جرمانى . وقد أجبرت الظروف هذه الامبراطورية العتيده على منح المجر استقلالها الذاتى مع تبعيتها للامبراطورية ، وقد طغت على الامبراطورية التقاليد والشكليات وزادت الاستثناءات . وكان نبلاؤها معفون من الضرائب وكان الفلاحون يسألون كل انواع المعاناة ، وظل هذا الوضع على حاله فى عهد الامبراطور فرديناند (١٨٣٥ - ١٨٤٨) بل وتفاقم سوءا فى عهد الامبراطور فرانسوا - جوزيف (١٨٤٨ - ١٩١٧) الذى تمت الرحلة فى عهده . والأمير ردولف كاتب رحلتنا هذه هو ابن بيئته وابن النمسا وابن الاسرة الحاكمة ، فمثل ترك كل ذلك أثره فى رحلته ؟ اننا نلاحظ أن حال الفلاح المصرى لم تستثره ، ولم يتعرض لذلك الا لما كان وصفه للأحوال البشرية مجردا خاليا من العاطفة ، وكأنه يرى أن هذا هو الوضع الطبيعى للفلاح ، وكان اهتمامه عندما كتب رحلته هذه منصبا - غالبا - على وصف الظواهر الجغرافية والحياة الحيوانية والنباتية ، ووصف الآثار ، والتعرض لتاريخ المدن ، والتغنى بجمال الطبيعة ، والاشعارات لأصول السكان (اشارات أنثروبولوجية) مع اشارات ذات دلالات سياسية وفسية .

ومع أن النمسا - فيما يقول المؤرخ فشر - كان بها فى ذلك الوقت اقصى انواع الشرطة فى أوروبا « وأفظعها وحشية وأشدّها قمعا » ، الا أن الأمير حدثنا فى رحلته هذه عن مدى خوف المصريين من رجال السلطة المصرية ، بل من كل لابسى الملابس الرسمية . مجرد ملابس رسمية تخيفهم وتجعلهم « يختبئون بين أعواد القصب » على حد قوله الذى يروى فيه واقعة محددة ، لا مجرد تشبيه بلاغى .

ومتابعة تاريخ امبراطورية النمسا ، أو المملكة الثنائية بعد ذلك (مملكة النمسا والمجر) توضح هذا الحشد من الأجناس المختلفة التى استقبلت الأمير ردولف ورفاقه عند قدومه لمصر : ايطاليون ، ويونانيون ، ودالماسيون (أهل دالماسيا والساحل الدلماسى - الساحل الممتد من شمال

الحدود الألمانية حتى تريسيت بما في ذلك ساحل استيريا) والمبان • الخ •
فقد كانت الامبراطورية النمساوية تمنح باجناس مختلفه ، عندما
استقرت بعض جالياتها في مصر حصلت على الحماية النمساوية ، بل
وسعى بعض أفراد هذه الجنسيات ممن لا يتبعون النمسا سياسيا للحصول
على الحماية النمساوية ، وقد حقق بعض هؤلاء تراء بالفا في مصر ، وقدم
لنا ردولف عن هذا التريسيتى الذى تخصص فى انتاج كل التحف الشرقية
فى خان الخليل وسوق الحمزاوى *

ولم ينس ردولف أن يذكرنا برأيه فى الأزهر الشريف والتعليم الدينى
وهو يعتبر الأزهر الشريف « مفخرة » للتعبص الاسلامى ، على حد قوله ،
ويث همومه لقارئيه ذاكرا ان هذا المعهد - وقد أسماه جامعة القاهرة -
يصدر التعبص للعالم اجمع ، وهو فى هذا يذكرنا برأى بيرتون (نشر
رحلته الهيئة العامة للكتاب - الألف كتاب الثانى) - الذى يفصل - من
وجهة نظر أوربية - اسلام الدراويش أو بمعنى آخر الاسلام اللاعقلانى
- اسلام الغيبيات والجان وما الى ذلك *

النصوص الأثرية المترجمة ، ووصف الآثار :

ومما يزيد من أهمية هذه الرحلة أنها تضم عددا غير قليل من
النصوص الأثرية المترجمة للعربية ، يزيد من قيمتها أن مترجمها هو العالم
الأثرى الشهير برجش Brugsch . *

وكان برجش باشا هو ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم (اللغة
الهيروغليفية) التى أسست سنة ١٨٦٩ ، لكن هذه المدرسة ألغيت سنة
١٨٧٦ وقد تخرج فى هذه المدرسة عدد من الأثاريين منهم أحمد كمال
باشا (١) • وقد نشر برجش فى غير هذه الرحلة كثيرا من الترجمات
لنصوص هيروغليفية قديمة (٢) •

وبالإضافة للنصوص الأثرية ، فقد قدم لنا برجش باشا وصفا لبعض
المواقع الأثرية ، وفيما يلى قائمة بكليهما (النصوص المترجمة ،
والوصف التقريرى للمواقع) لأهميتها للمهتمين بالدراسات التاريخية
والأثرية :

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ • دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٥ •

(٢) وردت اشارات لذلك فى : نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم •
جيمس رتشارد • ترجمة عبد الحميد زايد ، نشر هيئة الآثار المصرية •

- ١ - تقرير عن هليوبولس - الفصل الثانى *
- ٢ - الصراية المندوثة - الفصل الرابع *
- ٣ - دندره - الفصل الرابع *
- ٤ - آثار الكرك - الفصل الرابع *
- ٥ - طيبة - الفصل الرابع *
- ٦ - ترجمة لوحة جرانيتية فى أرمنت (ترجع لحوالى سنة ١٩٦٠ ق م) الفصل الرابع *
- ٧ - كوم امبو - الفصل الرابع *
- ٨ - عن آثار اسوان - الفصل الرابع *
- ٩ - فيلة - الفصل الرابع *
- ١٠ - تقرير اثرى عن مقابر ببيان الملوك - الفصل الخامس *
- ١١ - ترجمة نص هيروغليفى فى مقبرة سبتى الأول (١٣٥٠ ق م) الفصل الخامس *
- ١٢ - آلهة مصر الفرعونية (شجرة نسب) - الفصل الخامس *
- ١٣ - تاريخ منف - الفصل الخامس *
- ١٤ - الأهرامات وأبو الهول - تقرير اثرى - الفصل الخامس *
- ١٥ - عن التاريخ القديم لبرنخ السويس - الفصل السادس *
- ١٦ - برنخ السويس جسر الأمم - الفصل السادس *

المصريون فى رحلة ردولف :

حظيت الملاحظات الأنثروبولوجية بمكانة مهمة فى هذه الرحلة . لقد رأى الأمير أن أهل مصر فى معظمهم من عرق عربى ، بمعنى أنه كفريق وافد طبق ما قرأه ودرسه عن صفات العرب الفيزيائية ، فوجدها تنطبق على نحو أو آخر - على معظم المصريين ، حتى الفلاحين الذين رأى فيهم استمرارا للمصريين القدماء رأى فى ملامحهم سمات سامية Semitic ووجدهم عنصرا تسرى فى عروقه الدماء العربية على نحو أو آخر ، أما العنصر الثانى الذى ترك بصماته على دماء المصريين فيتمثل فى الأتراك وأهل شرق أوربا والقوقازيين وأهل الشرق الأدنى . لقد لاحظ ذلك بمجرد وصوله لاسكندرية : « ... واحتشدت على امتداد الماء قوارب ماذى بالعرب من كل الطبقات : فمنهم الغنى ومنهم الفقير ولكنهم كانوا يلبسون ملابس فاخرة لها طابع خاص ... وراينا كثيرا من أهل المدن

من الشرق الأدنى واليونانيين والإيطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع فوق رأسه طربوشا بينما كان آخرون منهم بغير طرابقتن » • ولما دخل الاسكندرية بالفعل لفت نظره العرب من الحمارين والسقائين والبائعين والفلاحين ذوى الجلابيب الزرق داكنى البشرة •• وجميعهم داكنو البشرة ، فالعربى الحقيقى داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة ، وشكله رقيق لكنه مقعم رجولة ، والعربى - وإن كان أرقى من اليهودى بكل المقاييس - إلا أنه يشبهه بشكل واضح لا تخطئه عين •• ، لكنه يعود فيقول : والفلاحون رغم أن الدماء العربية تسرى فيهم إلا أنهم أقرب شبها بالمصريين القدماء » •

وكل هذا لا يمنع أن المصريين قد تمازجوا تماما وأصبحوا عنصرا واحدا ، فعبد القادر باشا الذى أشرف على رحلة الأمير النمساوى كان « نصفه تركى ونصفه عربى » ولم ير الأمير أى فرق عرقى - فيما يقول هو - بين المسيحيين فى سوق الحمزاوى ، وهى سوق التجار المسلمين ومن الرحلة ، واليهود فى حى الجواهرجية والمسلمين فى حى النحاسيين • ويقول : « وفى السوق يؤكد العرب أنهم جنس سامى حقا كما هو شأن اليهود • وأنت لا تستطيع التمييز بينهم إلا بهنسية » •

ويشكل البربر - فيما يرى ردولف - جزءا من سكان مصر خاصة فى الصحراء الغربية ، وقد رأهم يعملون جنبا الى جنب مع النوبيين فى حراسة مراكز الصرافة وبيوت المال • ويقول عن المصريين فى الصحراء الغربية : « انهم بربر أصلاء ••• ألوانهم داكنة ومظهرهم الخارجى يوحى بصلاية أشد مما عليه سكان النيل الأدنى (الدلتا) وغالبهم طوال القامة ويتسمون بالانحصول ، وإن كانت ملامحهم أقل نبلا وجمالا من ملامح القبائل البدوية فى الشمال ، فالدماء الزنجية واضحة فيهم وبعضهم سود تماما ، له شعر مفلقل قد يحسبهم المرء من البربر ، والحقيقة أنه قد تم استرقاقهم - عندما كانوا أطفالا - من موطنهم فى داخل أفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التى نشأوا بها ، ومع هذا فقد ظلوا محتفظين بلغة البدو وزيجهم وعاداتهم ونسبوا أصولهم الأفريقية تماما » ، وعن أهمل الفيوم - نلاحظ أن ردولف يثبت تأثرهم بالعرق البربرى •

كل هذا لا ينفى بآية حال من الأحوال الامتزاج العرقى الكامل للشعب المصرى ، لكن أهمية ما نذكره الآن أن التراث الثقافى والعادات والتقاليد ، وما الى ذلك - كل ذلك يورث تماما كما تورث الصفات الفيزيائية ، ومن هنا لابد من دراسة هذا التراث الأفريقى والبربرى والعربى والأوربى الشرقى لفهم العقلية المصرية ، بالاضافة بطبيعة الحال لدراسة التغيرات

الفكرى الفرعونى والقبلى الأساسى * ولم ير ردولف فى أقباط مصر أى اختلاف عرقى يفرق بينهم وبين المصريين الآخرين فهم من (الخلطة) نفسها * وتلك ترجمة دقيقة لعبارته الدالة على ذلك : « ومن الناحية العرقية ، فإن قبط مصر ينتمون للعرق نفسه الذى ينتمى إليه المصريون الآخرون » ، ووصف بعض رجال الدين المسيحى الأورثوذكسى الذين قابلهم فى مصر القديمة بأن « بشرتهم داكنة * وسحنتهم تشبه - بشكل واضح - سحن اليهود * » * والأمير كما سبق القول - يرى بين العرب واليهود شبهة فيزيقية ، ويقول : « وقد رأينا بين الكهنة والقسس وغللمان الخورس الوجود البنية الداكنة كجوه الأفارقة الخالص » * ولاحظ الأمير أنه « كلما توغلنا للجنوب ، زارت مكانة البشرة » وهذا طبيعى نتيجة الأثر الأفريقى فى المصريين ، فمصر أفريقية على أية حال ، ومع هذا فقد لاحظ الأمير عددا كبيرا من الرقصات القوقازيات والبربريات فى صعيد مصر *

ومعظم الدراويش الذين رأهم الأمير كانوا - فيما يقول - يعودون فى أصولهم الى شرق أوربا وآسيا الصغرى *

ومع هذا فقد أشار الأمير الى أعراق غربية كالعبادة ، الذين رأى فيهم (العبادة) جنسا غير سامى ، وغير زنجى كذلك ، وزعم أنهم من الكوش (الجنس الكوشى Kushites) ، ويسكنون التلال الى الشرق من النيل أى بين النهر والبحر الأحمر واستقر بعضهم على ضفاف النيل (الفصل الرابع) *

وعن سكان أسوان (فى الفصل الرابع ص ٦٢) رأى ردولف فيهم تجارا عربا (وصفهم بأنهم ساميون مأكرون) يخدعون ويغشون زبائنهم الذين هم نوبيون وزنوج وسلالة الأثيوبيين القدماء والعبادة وقبائل كوشية صغيرة *

وحول بحيرة المنزلة رأى ردولف - فيما يقول - بقايا الكوشيين (الهكسوس) * قد يكون هذا خطأ على نحو أو آخر ، وقد يكون صحيحا ، لكنه على أية حال رؤية من عيون غربية ، وقد ترى عين الغريب ما لا تراه عين القريب *

الحياة الحيوانية الطبيعية فى مصر وقت الرحلة :

غطى وصف الحياة الحيوانية شطرا كبيرا من هذه الرحلة ، لسبب بسيط وهو أن الأمير ردولف اتخذ هواية الصيد وسيلة للاستمتاع أثناء رحلته هذه ، أو أنه كان بالفعل مهتما بعلم الحيوان ، ونورد فى السطور

التالية المامة شاملة عن الطيور والحيوانات البرية التى اصطادها وحصل
منها على نماذج ، ومن هذا يتضح مدى ثراء مصر فى هذا المجال خادمة
زمن الرحلة (النصف الثانى من القرن التاسع عشر) .

لقد حدثنا عن كثرة طيور البلشون او مالك الحزين وهى ما نعرفه
فى مصر بطيور (ابو قردان) ، واذا كان النوع الأبيض هو المعروف من
هذه الطيور الآن ، وهو النوع الذى نراه بكثرة فوق الأشجار المحيطة
بمدينة البحريان بالمجيزة ، وكما نراه ونحن صغارا يملأ الحقول فى الريف
خاصة بعد ربيها ، الا ان الأمير يحدثنا عن اللون اُخرى لهذا الطائر فمنسه
البلشون الأسود والبلشون الأرجوانى . وقد وجد الأمير هذا الطائر فى
حدائق شبرا وفى كل مكان ذهب اليه فى مصر سواء فى الصعيد ام شرق
الدلتا وحول بحيرة المنزلة ، كما وجده فى الحقول حول الاسكندرية .

وبالإضافة لهذا فان الأمير يحدثنا عن حوالى خمسين طيورا منها
النسور Vulture وقد رأى منها انواعا عدة عند المجر فى جبل المقطم
ورصدنا على ضفتى النهر اثناء رحلته الى أسوان وجزيرة فيلة ، كما
حدثنا عن الحشرات التى كانت شائعة جدا فى مصر ، وطيور الشاذب
(بتشديد الشين وضمها وتسكين النون وضم القاف) Snipe وهى
كما ورد فى معجم مصطلحات العلوم الزراعية - من فصيلة دجاجات
الأرض وتسمى فى بلاد الشام شكب (بضم الشين والكاف) ، وقد
صادها فى حدائق شبرا وأثناء رحلته النيلية للصعيد ، كما رأى الكراكي
(جمع كركى) وهى طيور طويلة الساق ، وصادفها فى الدلتا والصعيد ،
وطيور الوروار bee-eater وهذا الطائر يسمى أيضا الخضار
(بتشديد الضاد وفتحها) كما يسمى أيضا بالتصغير الخضيرة أو
الخضيرة ، واسم الوروار شائع فى الشام . وهو طير من الجواثم ملتصقة
الأصابع ، وقد صاد منه عددا لا بأس به فى حدائق شبرا .

ومن الطيور التى حدثنا عنها أيضا أبو طيط ويسمى هذا الطائر
الببويوت p-cwit وفى العامية المصرية الزقزاق الشامى ، وسبقانه طويلة
ويعيش حول المستنقعات وعلى ضفاف الأنهار ، وقد صاد الأمير منه فى
حدائق شبرا . وطيور الحجل (بفتح الحاء والجيم) Partridge ولما زار
الفيوم وجد حول بحيرة فارون الصقر الحواة eagle buzzard
واليجع وطيور الغطاس diver . وحدثنا عن طيور النورس
ويسمى الواحد منها أيضا زمج الماء (بضم أوله وتشديد الميم
وفتحها) gull ويحدث عنها فى معاجم الحبان تحت اسم larus
وهى طيور ريشها طويل ، وهى من رتبة كفيات القدم وتطير أسرابا فوق
البحيرات والشواطىء ووصفها الأمير بأنها طيور ساذجة يسهل صيدها

كما حدثنا عن نسور النهر river eagle ويقال لها أيضا عقبان البسم
وقد وجدها حول بحيرة قارون • وفى اليوم أيضا حدثنا عن البط الأبيض
وطيور الغراء السوداء (بتشديد الراء وفتحها) black coots وقد
وجدنا تتردد بكثرة حول البوص (الغاب) القريب من بحيرة قارون ويسمى
الواحد من هذه الطيور أيضا عرد (بتشديد الراء وفتحها) وهى من طيور
المستنقعات وسيقانها طويلة ، ومن أسمائها المعجمية اينسا Fulica
ودجاجات الأرض وهى طيور برية طويلة الساق اسمها العامس Scolopax
rusticola كما حدثنا أثناء رحلته النيلية فى الصعيد عن طيور أبو مازة
Spoonbills ، واوز النيل والخطاب (بتشديد الراء وفتحها) أو
السونزو Swallow والفللق Storkes • وكانت رحلته لبحيرة المنزلة
ثرية فى هذا الصدد ، فحدثنا - بالإضافة لطيور أخرى - عن طيور
الغاق Cormorants وهى طائر مائى من الفصيلة البجمية من كئيبات القدم
ويسمى أيضا غراب البحر Sea raven ، وطائر مزرة البطسانج
moor buzzard • ويمكن البحث عنه فى معاجم الحيوان تحت مصطلح
Circus • وحول المنزلة أيضا حدثنا عن طيور التعلق (بكسر التاء

وتسكين الغين وكسر اللام) rail وهو طائر مائى قصير الذناجين
طويل الساق ، وطيور الزقزاق Plover وتسمى أيضا قلقاط ويسميه
العامية فى مصر أبو الروس ، وصادف طيور السمان كثيرا ، وهى الطيور
التي تسمى بالعامية الشامية فرى ، وإن كان من الملاحظ أن هذا المسمى
الشامى بدأ يشيع فى العامية المصرية • وقد لفت نظره كثيرا - وأثار
عجابه أيضا - طائر البشروس (الفلامنجو Flamingo) • كما
حدثنا عن طائر زمار الرمل Sand pipers ويسمى أيضا بليطوى (بتشديد
الياء) وهو طائر طويل الساق والمنقار ، وفى قنا صادف اليوم الصياح
Screech owl ، ويسمى أيضا اليوم الأصم والراحدة منها البومة
الصماء ، وبالعامية المصرية (البومة الطرشة) ، وقد التقى بها فى المعابد
الجنازية بالصعيد وثمة نوع من هذا البوم يسمى الهامة • كما حدثنا عن
طيور أبو مجرفة Oveset or Scooper وهو طائر ريشه أبيض وأسود وساقاه
طويلتان ، ومنقاره مقوس لأعلى ، ومن هنا سمي (أبو مجرفة) لتشابه
منقاره مع المجرفة •

وقبل أن يودع الأمير مصر فى طريقه لفلسطين حدثنا عن صدى
الكروان •

★ ★ ★

أما عن صيده من الحيوانات البرية ، فقد اندمشت - هي نفسها - لكثرتها حتى فى المناطق المزروعة والأهلة بالسكان ، فقد اصطاد فى حدائق شبيرا حيوانات ابن اوى Jackal ، والاسم العلمى لهذا الحيوان هو Canis aureus وهو من الفصيلة الكلبيية ورتبة اللواحم ، ووصف الأمير الذئب المصرى بالموسامة ، وقد اصطاد منه فى حدائق شبيرا ، وفى كل مكان - سواء فى الصعيد أو الدلتا - قام فيه برحلة صيد .

وحدثنا عن ثعالب الصحراء والسحالي والنموس حول الفيوم ، كما اصطاد الأمير حيوان الوشق (بفتح الواو والشين) Lynx وتكتب أيضا Lynx بدون حرف . وهما ان عيونه خضراء ، وقد التقى به حول بحيرة قارون ، وهو حيوان مفترس من جنس السنور . وكان له تجربة فى صيد الأرانب البرية فى الفيوم ومنطقة السويس ، أما الضباع فقد كان شغوفاً زائداً بصيدها وكان بينه وبينها تارة .

الحياة الحيوانية الطبيعية فى فلسطين وقت الرحلة :

بعد أن زار الأمير مدينة القدس تفرغ للزهوة والصيد ، فحدثنا عن طيور الصرد (بضم الصاد وتشديدها) وعن طيور القمرية (بضم القاف وتسكين الميم) Turtle-dove والسمان (الفرى) وعن العقاب النسارى Osprey علم نهر الأردن وطيور الشرقرق roller ويسمى الواحد من هذه الطيور أيضا شقراق (بكسر الشين وتسكين القاف) وهو طائر أصغر من الحمام ، له ألوان زاهية ، ومنه الأحمر الوردى ومنه الأزرق ومنه الأخضر ، وطيور الوروار ، وطيور الدراج (بتشديد الراء وفتحها) Frankolin وهى طيور تشبه الحجل ، وطيور التدرج (بفتح التاء وتسكين الدال وضم الراء) Pheasant ومن هذه الطيور ما هو فضى وما هو ذهبى وما هو مطوق ، بمعنى أن لون الريش حول رقبتة يختلف عن لون الريش فى سائر جسمه .

أما عن الحيوانات البرية التى صاهاها حول مسيلات نهر الأردن فأهمها على الإطلاق الخزائير البرية التى كانت توجد هناك بأعداد كبيرة . كما حدثنا عن حيوان الشيهيم (بتشديد الشين وفتحها) Porcupine وهو حيوان شائك من القوارض ويسمى أيضا النيص (بتشديد النون وفتحها) وحيوان الأرماديلو Armadilo ويسمى أيضا (المدرع) وهو حيوان ثديي ، لرأسه وجسمه دروع من الصفائح العظمية الصغيرة ، وهو يستطيع أن ينكمش داخل هذه الدروع على هيئة كرة ، ويسمى

بالمتمسكين أينما (ديريح) وقام الأمير باصطياد بعض الأيا
 الخلال بين يافا والقدس . وهي حيوانات مجترة مختلفة الأذو
 عن حيوان كسمار البندق nuteraker والأرانب الداكنة والشع
 على نحو خاص . كالمعهد به بحيوانات ابن آوى والضبا
 لنا من خلال معانيته لما اصطاده أن ابن آوى في فاسطين أ
 اوى المصرى والبلول منه سيقانا ، وان كان ذيله اقصر من
 المصرى *

★ ★ ★



والتوع الابيض من هذا الطائر يعرف أيضا باسم بلشون الغيط



وقد أشار الأمير شى رحلته للبلشون الأرجوانى ، والبلشون الاسود .



أبو منجل ويسمى أيضا المقدس (بتشديد الدال وكسرهما)



أبو ملعقة



البشاروس ويسمى أيضا النحام (يضم النون وتشديدها)
• وجده حول بحيرة المنزلة وفي جزرها •



الغاق أو غراب البحر وجدده الأمير ردولف بكثرة في جزر بحيرة المنزلة



مرزة الوديان أو مرزة البطائح - طائر جارح
Moor buzzard شاهده الامير في جزر بحيرة المنزلة •



النسر أبو ذقن



الحداة - وكانت من الطيور الجارحة المنتشرة جدا في مصر لكن أعدادها قلت الآن



النسر أبو اذن (أبو ودان) وقد اُشار اليه ردولف بالنسر الاصليح



النسر الاسمر ويطلق عليه أحياناً العنقاء

ماذا أضافت الرحلة لمقاريخ عصر اسماعيل ؟

حظى عهد الخديو اسماعيل باهتمام بالغ من الدارسين لأسباب عدة ، لعل أهمها رغبة الخديو فى نقل مظاهر الحضارة الأوروبية الى مصر لتكون قطعة من أوربا ، واهتمامه بتدعيم استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وامتداد الادارة المصرية فى عهده لمساحات واسعة فى أفريقيا خاصة ، فقد رفع العلم المصرى على مملكة أونيوورو المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقا سنة ١٨٧٢ . وأعلن ملك أوغندة ولاءه لحكومة مصر وتم توسيع نطاق الادارة المصرية فى مديرية خط الاستواء بعد ذلك وضم كل منطقته البحيرات ، وضم زيلع وبريرة سنة ١٨٧٥ ، واعترف الانجليز بسيادة مصر فى الصومال . وكانت كل هذه المناطق تعد مديريات أو محافظات مصرية

لقد كان عصر اسماعيل - اذن - عصر توسع . كل هذا معروف . مطروق ، لكن هذه الرحلة تضيف الى معارفنا التاريخية أبعادا طريفة ، فقد انتشرت فى مصر فى ذلك الوقت الطرق الصوفية ذات الطابع الجهادى ، حتى وان كان هذا الطابع مظهريا أو غير حقيقى . والطابع الجهادى يخالف تماما روح الطرق الصوفية فى مصر . وعلى أية حال فان الطابع الجهادى لهذه الطرق الصوفية فى مصر آنذاك لم يخرج عن كونه تغييرا فى تصميم رقصات الدراويش (وهو ما يسمى حلقات الذكر) على النحو التالى :

- بينما يدور الدراويش دورانا عنيفا حول نفسه يرفع إحدى يديه الى أعلى باسطا كفه ، بينما يمد يده الأخرى للأمام ، وقد قبض كفه بشدة (كأنه يقبض على سيف ، وهو فى الحقيقة يقبض على الهواء) ، وهذا التصميم الفنى للرقصة (حلقة الذكر) يعنى أن الدراويش - بيده المقبوضة - يحارب الكفار ، وأنه فى مقابل ذلك يطلب عطايا الرحمن التى يتلقاها بيده المبسوطة (يد مبسوطة لتلقى العطايا - ويد قابضة على سيف وهمى) .

- عندما تأخذ الجلالة أحد الدراويش وتعتره (الدوخة) نتيجة الدوران الشديد حول نفسه ، فإنه ينطلق الى شوارع القاهرة وحواريها صائحا : الجهاد . . . الجهاد ضد الكفار . . . الموت للكفار . . . وهكذا .

لقد وظفت الدولة المصرية اذن الطرق الصوفية لخدمة أغراضها . لاضفاء طابع جهادى على التوسع المصرى فى أفريقيا . لقد لعبت الحارق

فى مصر دور الوسيلة الاعلامية لصالح الدولة ، وهو دور - على أية حال - لا يتناقض مع طبيعتها .



وقد تعرضت القناطر الخيرية لعملية ترميم واصلاح فى عهد اسماعيل ، وقد زار الأمير ردولف هذه القناطر ورد ما كان يردده أعداء مصر فى ذلك الوقت وهو أن سليات هذه القناطر أكثر من ايجابياتها ، وانها مشروع غير اقتصادى لأن ما أنفق عليها يفوق فوائدها . الخ ، وقد أصبح معروفا أن القناطر الخيرية من أعظم المشروعات التى أنشأها محمد على .

القدس الشريف :

سنتناول فى مقدمة الجزء الثالث من هذه الرحلة بالدراسة المفصلة شيئا ما - ما تعرض له الأمير من نقد مرير لقصاص اليهود المتعلقة بالأماكن المقدسة فى فلسطين ، وما قرره من أن الاسلام هو الأمين على مقدسات القدس لأنه دين - على حد تعبيره - يضم بين دفتيه كل الأديان السابقة عليه بصورة نقية بعيدة عن الخرافة .

أما الذى يعيننا الآن ، فهو أن الأمير كان يضع العهد القديم نصب عينيه وهو يجول فى فلسطين ، بل حتى وهو يجول فى مصر ، فقد كان مهتما بالبحث عن اسم فرعون موسى وعن مواضع الخروج (خروج اليهود من مصر) ، وكان مهتما بالآثار المحيطة بنهر الأردن وما يقال له قبر موسى عليه السلام . الخ . لقد كان ينظر للعهد القديم ككتاب تاريخ ، رغم أنه اعتبر بكاء اليهود عند حائط المبكى نوعا من أنواع « التعصب والخرافة » .

ويهمنا أن نقول ان النقد الموجه لروايات العهد القديم أكثر من أن يدخل تحت حصر ، لكننا نفضل هنا - لأسباب علمية - الرجوع لمكتاب « نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم » الذى جمعه ونشره جيمس بريتشارد (عربية وعلق عليه د. عبد الحميد زايد) وراجعه محمد جمال الدين مختار - ونشرته هيئة الآثار المصرية (، فالحقائق الأساسية التى سيطالعها القارئ فى السطور التالية يمكن الوصول اليها فى مقدمة معرب هذا الكتاب الأنف ذكره . » لم يأت كتاب العهد القديم وحيا كما لم يكتب دفعة واحدة . وهو عبارة عن سجل تاريخى مختلف الناس فى أقسامه وعدد أسفاره » ولما كان عدد حروف اللغة العبرية اثنين

وعشرين حرفا ، فان عدد أسفار العهد القديم عددها اثنان وعشرون ، بينما يرى آخرون انها أربعة وعشرون سفرا ، ويميل فريق ثالث الى أن عدد الأسفار هو تسعة وثلاثون سفرا . وقد تطلب وضعه حوالى ألف عام .

واللغة العبرية ليست هى اللغة الأولى أو اللغة الأم للعهد القديم . . . وقد فكر اليهود فى جمع الموجود من الأسفار المقدسة سسواء المحفوظ فى صندوق الناس أو المدون . . . ولا تتفق التوراة السامرية التى ترجع للقرن الرابع قبل الميلاد مع الترجمة السبعينية للتوراة الا فى الثلث فقط .

وقد تمت الترجمة السبعينية أيام بداليايموس الثانى فيلادولفوس (٢٨٥ - ٢٤٧ ق م) وترجع تسميتها بالترجمة السبعينية الى أن القائمين عاينها كان عددهم اثنين وسبعين عالما (ستة من كل سبط من اسباط بنى اسرائيل 6×12 سبطا = ٧٢) ، وتمت هذه الترجمة فى الاسكندرية ، وهى ترجمة غير دقيقة ، ثم ظهرت ترجمات أخرى بعد ذلك ، وتطورت أسفار العهد القديم فى عصور مختلفة وتنقسم هذه الأسفار الى ثلاثة أقسام رئيسية هى : التوراة (تورا) والأنبياء (نبيم) والكتابات (كنبيم) ، ولا توجد وحدة فى أسفاره التى امتد جمعها منذ ١١٠٠ ق م . تقريبا حتى القرن الثانى قبل الميلاد تقريبا .

وفى القرن التاسع عشر أظهرت الآثار المكتشفة إمكانية إعادة العهد القديم الى أصوله فى حضارات الشرق ، وظهرت دراسات تثبت اعتماد العهد القديم على العقائد البابلية ، وقد أشار الدكتور فؤاد حسنين (١) المتخصص فى الدراسات العبرية أن التوراة الحالية العبرية ليست هى صحف موسى عليه السلام ، لأن العبرية لم يعرفها موسى عليه السلام ولا عرفها اليهود فى عهده ، فموسى عليه السلام ولد فى مصر وتسمى باسم مصرى وتعلم لغة المصريين الهيروغليفية وتكلم بها وكذلك كل اليهود الذين كانوا فى مصر ، وإذا كانوا يتحدثون لغة أخرى غير الهيروغليفية فان هذه اللغة لابد أن تكون الآرامية وليس العبرية ، واللغة العبرية مكتوبة من اليمين الى اليسار ، فاللغة العبرية اذن لاحقة جدا لموت موسى عليه السلام ، فصحف موسى والتوراة لم تدون بالعبرية بل بالمصرية القديمة ، ويرجع الدكتور فؤاد حسنين أن التوراة الحقيقية وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التى دعا اليها أخناتون .

(١) فى كتاب التوراة الهيروغليفية ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ،

وكل هذا التحليل لا ينفي عقائد المسلمين الراسخة فى أن التوراة من عند الله سبحانه وتعالى • ولكن أين هى ؟ فاعتبار العهد القديم مصدرا وحيدا للمحاثق التاريخية القديمة فيه تجاوز خطير للمنهج العلمى السليم •

النساء فى رحلة صاحب السمو :

مر الأمير ردولف مرورا عابرا على جزر البحر الأديراتى والساحل اليونانى ، فأبدى ملاحظات عابرة عن النساء ، وفى مصر لم تستر ع النساء كثيرا انتباهه ، لكنه توقف أمام بعض الرقصات الشعبية ولم يكن رأيه فيها نديا باية حال ، ولما نادى مصر متوجها الى يافا فالقدس فبيت لحم نجده يذوق كثيرا أمام جمال نساء بيت لحم ، ولم يعفهن من الثمغن فى حقائهن حتى وهن راكعات ساجدات باقيات فى الكنائس والأماكن المقدسة الأخرى •

ويقول عن الشابات فى الجزر اليونانية ان فيهن ذوات « وجوه جميلة صبوحة ، أما العجائز منهن – فيالهول منظرهن ، « ان لا يطيق المنظر اليهن الا أهل الجنوب الأوربى » ! •

يقول الأمير : « لم ان أبدا نساء أجمل من نساء بيت لحم • لهذا العدد الكبير من النساء الجميلات فى مدينة واحدة ١٩ • ان السمر لا يستطيع أن يلاحق بعينه هنا كل النساء الجميلات • عاصفة من الجمال تتلوها عاصفة أخرى • انهن نماذج من العذراء مريم النبيلة • » (ص ٣٠٦ من النص الانجليزى – ص ٩٣ ج ٣ الترجمة العربية) • ولم يعف الرجل جميلات بيت لحم من نظراته المتغلغلة حتى وهن يصلين ويتعبدن • يقول وهو يراقبهن فى مصلى المهد : « وتزاحمت الجموع أمامنا على المواضع المقدسة تحت الأرض ، وركعت بعض نسوة بيت لحم الجميلات جمالا مدهشاً – على الصخرة الجرداء • لقد كن متألمات تألقا غريبا فى ضوء المصابيح الباهتة • » •

وتقدمت إحدى نساء بيت لحم بالتماس للأمير لم يحدثنا عن محوواه ، لكنه وصفها بأنها شابة جميلة ، وراح الرجل يتابعها بعينه – كما قال هو – وهى مقبلة لتقديم الملمس ، كما راح يتابعها بعينه ، وقصد استدارت ، ولم تكف عيناه عن ملاحقتها حتى اختفت من أمام ناظره • لقد رأى فيها جلالا هادئا ، كما قال هو – كجمال العذراء مريم •

ولا نتوقع أن يتغلغل الأمير ردولف فى الحياة المصرية كما تغلغل الرحالة بيرتون مثلا (صدرت ترجمة رحلته فى سلسلة الألف كتاب الثانى – الهيئة المصرية العامة للكتاب) • ذلك أن الأمير أتى لمصر فى موكب رسمى ، وكانت كل زيارته وتجولاته واضحة فى النور • لذا ، فرحلته كانت فى مجال وصف المعالم الجغرافية والأثرية واستدعاء المعلومات التاريخية ، أكثر مما هى مفيدة فى وصف نفسية الشعب وتوجهاته •

لقد ذكر ردولف على سبيل المثال أنه « لا توجد إشارة بل أدنى إشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة بالاسكندرية ، تلك الطبقة التى نعرفها فى فينا أو بين •• وغالب المومسات فى مصر – كما قيل لى – آتين من النمسا •• » ويبدو أن الرجل الطيب صدق ذلك •

الأزهر والتعليم الدينى فى رحلة الأمير ردولف :

أشرنا الى أن الأمير أشار فى رحلته الى الأزهر الشريف باعتباره معملا لتفريخ التعصب فى العالم الإسلامى وليس مصر فصحب • ونحسب أن هذا الرأى من قبيل الفكرة الثابتة التى حملها الأمير معه ، ولم يكن ما رآه ليغير شيئا حتى لو كان مناقضا تماما لفكرته هذه • ولم يكن الأزهر الشريف فى حالة ازدهار فى الفترة التى زاره فيها ، فالمرحوم عبد الرحمن الرافعى يحدثنا أنه : « لم يكن لعلماء الأزهر فى عهد اسماعيل شأن كبير فى تطور الأحوال العامة سياسية كانت أو اجتماعية ، فقد ضعفت مكانتهم عما كانوا عليه أيام الحملة الفرنسية وأوائل عصر محمد على » لكن الرافعى – على أية حال – يعود فيقول أنه « يلوح له أن الأزهر ومن اتصل به من العلماء والطلبة قد استردوا فى عهد اسماعيل شيئا من المكانة التى كانت لأسلافهم من قبل ، فقد نال بعضهم مكانة عالية ومنزلة سامية فى الهيئة الاجتماعية • »

ويمكن أرجاع مثل هذه الأفكار المتعصبة التى حملها الأمير وغيره ضد الأزهر الشريف الى ما عرف عن الأزهر من دور جهادى أثناء الحملة الفرنسية على مصر وتصدى الأزهر للدفاع عن رأى الجمهور بأجبار السلطان العثمانى على تولية محمد على أمور مصر ، وقيام الأزهر بالتوعية الدينية •

ولا نتوقع – كما سبق أن ألمعنا – أن يصل الأمير ردولف لجسور الأمور ، على نحو ما وصل رحالة خبير كرتشارد بيرتون الذى زار مصر

سنة ١٨٥٢ وأشار بصراحة ووضوح الى أن الأزهر الشريف والتعليم الجاد هما الخطر الحقيقي - على المستوى الشعبى - اللذان يتحتم على أى تدخل أجنبى فى مصر أن يواجههما ، أما قوى الدراويش أو التنظيمات الصوفية فلا خطر منها ، أما الأمير ردولف فقد أخذ الأمور وفقا لمظواهرها فاعتبر حلقات الذكر التى يقيمها الدراويش دليلا على تعصبهم وخطورتهم واحتمل قيامهم بحركات جهادية • وحقيقة الأمر أن الأزهر وعلماء مصر بذلوا - ولا زالوا - جهودا مضنية لتتنقية الحركة الصوفية فى مصر من كثير من الخرافات والأمور الخارجة عن الدين •

كلمة أخيرة :

من الضرورى أن ننوه هنا الى عدة أمور مهمة :

١ - أن الأمير ردولف هو صاحب السمو الامبراطورى والملكى ، وأنه لم يكن وليا للعهد ، وبالتالي ليس أرشيدوق من الناحية الرسمية ، ومع هذا فقد عرفت رحلاته برحلات الأرشيدوق •

٢ - كتب الأمير رحلته بأسلوب انجليزى سلس لكننا لم نستطع الاستدلال على المقابل العربى لبعض القرى المصرية والفلسطينية ، فكتبناها بالحروف اللاتينية كما هى دون ايراد المقابل العربى •

٣ - مجمل أفكار الرحلة لا تصدم القارئ العربى ، ومع هذا فقد أورد الأمير بعض الأفكار غير الصحيحة أو التى لا يرضى عنها القارئ العربى فعلقنا عليها فى الصفحات نفسها ، وأفردنا جانبا للتعليقات المفصلة عن كل فصل بآخر الكتاب •

والله من وراء القصد

د عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصل الأول

الاستعداد للرحلة - مغادرة فينا - السفينة
 ميرانمار - ميناء ميرانمار - كورفو - زانطة -
 الطراد الروسي - حديث عن الساحل اللبناني -
 حديث عن ساحل استيريا ، زيارة دير وكنيسة
 أورتوذكسية - وصف أهل الشرق الأدنى (يدخل
 فيهم اليونانيون) - تعرض السفينة لعاصفة -
 القمامة والرائحة النتنة في زانطة والساحل
 الدماشي - أهل زانطة والثرثرة على المقاهي -
 كاهن المعبد يصطاد الأرانب - جبال كريت -
 سواحل مصر المقدسة - رسوم الفنان المرافق
 للرحلة - تعليقات المترجم *

اتخذت القرار للقيام برحلتى لبلاد الشرق بسرعة *
 وعلى عجل تم الاعداد لها * فتصفحت تصفحا غير وئيد كتبا
 عن الرحلات لبلاد الشرق ، وقبل أن تبدأ الرحلة بأيام قلائل
 سبقنا متاعنا ، كما سبقنا المسئول عن الثياب ومعه كل
 ما يلزمنا ، والخدم والبنادق (١) وقدر كبير من الذخائر
 وعدد من الكلاب الى تريست Trieste ، حيث كان اليخت
 ميرانمار فى انتظارنا ليكون رهن اشارتنا *

وفى التاسع من شهر فبراير تجمعت مجموعتنا المسافرة
 فى المحطة الجنوبية فى فينا Vienna (٢) فى مساء يوم
 شتاء قارس البرودة فالجليد يغطى الطرقات ، والسحب

الكثيفة تحجب السماء * انه جو كثيب لكنه ملائم للبحار ،
فجنسنا الاوربي البائس تعود - سى غالب الاحيان - على
تحمل هذا المناخ الفادر *

وكننت قد عدت من رحلة سريعة وطويلة للخراب الاوربي
البعيد منذ يومين لأودع صديقا صدوقا ملتواه الاخير *

وبهذه الأفكار الحزينة خطوت لأركب حافلتى * لقد
خيم البرد الشديد الذى نتحملة الان وحدنا - أملا بان نستمتع
عما قريب بدفء الشرق المتوهج * وتحرك القطار نافتا
دخانه - بعد أن أطلق صفيرا - من المحطة ، فودعنا ليل حالك
السواد كالقار ، وجليد متساقط ورقائق ثلج غطت كل شىء ،
وعواصف *

لقد تجمعت مجموعتنا الصغيرة المسافرة فى عربة النوم
بالقطار ، وكانت هذه المجموعة رغم قلة عددها تتكون من
أشخاص محبين للرحلة والمغامرة هم عمى دوق تسكانى الأكبر
وكونت فالديبرج Waldburg والقس أبوت ماير Abbot Mayer
والماجور فون اشنباشر Von Eschenbacher والكونت جوزيف
(يوسف) هويوس Hoyos ، والفنان بوسنجر Pausinger
وأنا ، وكنا جميعا فى طريقنا للحج (٣) لبلاد الشرق ، وقد
صحبنا الكونت هانز فلتسيك Hans Wilczek الى ساحل البحر
ومنه اتخذ طريقه الى ايطاليا * وسرعان ما انسل الواحد
اثر الواحد من مجموعتنا لينعم بالراحة ، ولم يبق الاى
وفلتسيك فرحنا نتجاذب أطراف الحديث حتى غلبنا النوم
أخيرا بعد أن أوغل الليل *

لقد أيقظنا البرد الثلجى فى الصباح الباكر والتصق
بعضنا ببعضنا الآخر فقد كنا نرتعد * وقد أخبرنا الحارس
أن الترمومتر يشير الى عشرين درجة برودة (٩)(٤) وأن
رقائق الجليد التى تتخذ شكل سعف النخيل فوق النوافذ تؤكد

صحة ما يشير اليه الترمومتر • لكننا سننعم قريبا بنخيل
أخرى متألقة في صيف مصر الهادئ •

وشمخت أدلسبرج Adelsberg وسط الجليد الكثيف
وشكلت آخر غابات للصنوبر منظرا جميلا من مناظر
الشتاء ، ومكنتنا السماء الصافية من رؤية منظر على البعد
للمنطقة من كارست Karst الى جبال الألب • لقد كان
الجليد في كل مكان ، فحتى في نابرسينا Nabresina
كنا لازلنا نرى بقعا بيضاء ، الا أننا كلما توجهنا للجنوب
توهج النور ، فغدت السماء أكثر زرقة وأشعة الشمس أكثر
دفئا - وكان هذا الدفء وهذه الزرقة هما أول تحية نتلقاها
من الجنوب الشمسى • وامتد البحر أمام نواظرنا رائعا
وهادئا وناعما كصفحة بركة جبلية صقيلة كمرأة • لقد كان
البحر الأدرياتي Adriatic أزرق دافئا رائعا ، ولم يكن
كالمحيط الرمادي الكثيب الذي كنت قد رأيته مؤخرا (٥) •
وقد كان اثنان من رفاق رحلتى يريان هذا الجمال الطبيعي
الرائع للبحر الأدرياتي للمرة الأولى في حياتهما ، فراحا
يحملقان في المناظر بدهشة واعجاب •

لقد توقفنا عند محطة مرامار Miramar ثم اتخذنا
سبيلنا الى ميناء صغير • لقد كان منظر القلعة المقامة بموقع
رشيق فوق صخور تبرز من المياه ذات الأمواج الصاخبة وبين
خضرة الجنوب التي لا تنضب - أكثر المناظر جدارة بأن
تكون موضوعا للوحة فنان • وبالقرب من هذه القلعة رست
سفينتنا التي تحمل الاسم نفسه (ميرامار) ، ولما نظرت لميناء
ميرامار طافت الذكريات الجميلة بخاطري كأنها حلم ، لقد
رأيتهما وكأنما ألتقي بصديق قديم فقد سبق لي أن قمت
برحلتين إليها (الى مرامار) •

وانتظر قارب عند نهاية السلم وحملنا سريعا للسفينة ،
وعند الممر وقف القائد روديجر Rodiger قبطان الانقاذ

البسرى وصعدنا لظهر السفينة ، بينما يعزف السلام النمساوى
المجرى واستعرضنا مجموعة العاملين على ظهر السفينة الذين
أصطفوا لاستقبالنا - وكان المسئولون (الصباط) الآخرون
هم اللبنانت ، كونت خورنسكى Chroinsky (الذى سبى
أن قمنا بصحبته برحلتى الى اسبانيا) بالاضافة الى هاسن
Hahn وساكنس Sacks ورزنيك Resneck
وقد صحبنا الدكتور هيرش Hirsch كطبيب للرحلة ، وحسب
قد عرفت الدكتور هيرش هذا خلال رحله سابقه الى ثورفو
Corfu (٦) *

لقد ألقى نظرة عجل على السفينة جعلتني أكن اعجابا
لها ، وارتبطت كبائنها وجناحى الخاص ، وكل موضع بها ،
فى ذهنى بكثير من الذكريات السعيدة *

وقد صحبنا فيلتسيك الى السفينة ، وكان قد قضى مسى
منذ عامين أياما طيبة ، وتناول معنا طعام الغداء ثم تركنا
عائدا للشاطئ ، وبعد دقائق قليلة كان يلوح لنا بتحيةة
الوداع من شرفة القلعة *

وبقينا جميعا فوق سطح السفينة نمتع البصر بالمنظر
الجميل ، فقد كان ضوء الشمس يغمر قلعة دينو Duino
وميرامار ومرتفعات كارست Karst شديدة التحدر ومدينة
تريست ذات الموقع الجميل ، وبدأت هذه المناظر أول صورة
باعثة على البهجة فى رحلتنا هذه * ومررنا بالقرب من قطع
الأسطول النمساوى والطراد الروسى أسكولت Ascolt .
وكانت السفن الحربية حتى وهى تحيى تبدو مستعدة
للقتال (٧) ، وانسابت من سفينة الأدميرال النمساوية ألحان
نشيدنا الوطنى *

ولما اقتربنا من الطراد الروسى أرسلنا بتحيةة وقور -
لكنها جميلة « ترنيمة القيصر Hymn to the Szar » *

وسرعان ما بدأت تريست تتلاشى أمام نواظرننا فقد
أبحر سمينتنا جنوبا على طول ساحل استيريا Isterian Coast (٨)
وبقينا لبضع ساعات فوق سطح السفينة • وكانت درجة
الحرارة - حقيقة - منخفضة ، لكن الجو كان بالنسبة لنا -
مبهجا بعد أن تركنا شتاء وسط أوروبا • وقد شغلنا أنفسنا
فى فترة ما بعد الظهر بترتيب الدبائن ، وأفضى كل منا
بما فى صدره للأخر وتالفنا تالفا اجتماعيا لطيفا بعد أن
تركنا سطح السفينة ، وتناولنا عشاءنا فى وقت متأخر مما
يهدى سره المساء تنمضى دون ملل ، فأدركنا وقت النوم
سريعا •

وقد ادخر لنا اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سماء
ذات سحب داكنة ، ورياحا وبحرا هائجا وبرودة ، فاصبح
معظم المسافرين مرضى ، وقد ترك كل هذا اثرا واضحا على
كثير من المسافرين فتعكر مزاجهم فجلس الجمع الجميع -
مرضى واصحاء - على سطح السفينة وراحوا يراغبون
الامواج الهائجة لبحر مغادع لعوب • وفى حوالى الساعة
العاشر صباحا تبدى لنا جرف ليسا Lissa شديد الانحدار ،
ونظر كل نمساوى نظرة مشوبة بالعاطفة والشجن لتلك
الجزيرة التى تعد شاهدا على الأعمال البطولية النبيلة
لبهارتنا •

وفيما يتعلق بمنظر ليسا Lissa فلا شىء فيه يجذب
الانتباه • انها جزيرة قاحلة ذات جروف شديدة الانحدار
وتلال متشابهة لا تباين بينها ، وليس فيها ما يحث الفنان
المبدع على الابداع •

وعلا موج البحر بعد الظهر ، وأبرقت السماء وأرعدت
مساء ومضى اليوم رتيبا فقد منعنا حركة السفينة واهتزازها
من قطع الوقت بالقراءة أو الكتابة ، كما كان مسارها فى
عرض البحر بعيدا عن الساحل ، ومضى الليل أكثر رتابة ،

ولم يكن امام المصايين بدوار البحر من حل سوى البقاء فى
أماكنهم بينما تضى الساعات فائرة مملّة ، واهدانا اليوم
الثانى عشر من شهر فبراير عند الشروق بحرا أكثر هدوءا ،
ولما اسرعنا الى سطح السفينة حيثنا - بمنظرها - فمم الجبال
الألبانية (٩) التى كستها ثلوج كثيرة .

ولجبال ألبانيا جاذبية خاصة للمسافر ، فمن السفينة
تراها تشكل طبقات كالشرفات وتجذب البصر بوديانها
الصخرية الجميلة ، وتثير جروفها الحادة التى تهبط شامخة
حتى البحر اعجاب الرائي .

وبالنسبة لى فان جبال الجنوب كانت أكثر جاذبية بكثير
من جبال الألب فى وسط أوربا ، فجبال الجنوب بتكويناتها ،
وما يحيط بها من ضوء ودفء تشكل مع زرقة السماء العميقة
وخضرة الجنوب منظرا خلابا ، يجذبنى أكثر من غابات
الصنوبر ذات المنظر النمطى التى تظللها سماء مظلمة كئيبة
صبغها الرصاص بلونه .

ولا يرى المرء على الساحل الألبانى الا قليلا من المدن
الفرادى ، اذ يلمح هنا وهناك منازل مسطحة الأسقف مطلية
بالوان فاتحة تشكل قرية أقيمت على مدرجات فوق المنحدرات
والأماكن غير المنحدرة بين أشجار السرو (١٠) العابسة
وأشجار الزيتون الخضراء التى اعتري خضرتها لون رمادى .

وقبل الظهر ظهرت لنا جزيرة كورفو Corfu اليونانية
الجميلة والى الغرب منها جزر مرليرا Merlera ، (١١)
وجزر فانو Fano ، وهى جزر صخرية صغيرة ، والممر بين
جزيرة كورفو والبر من أجمل الممرات فى العالم بلا شك .
والى الشرق تمتد الجبال الألبانية حول حوض بوترينو
Butrino وواديه ، وثمة بحيرة جميلة بين الجبال فى
وسط وادى بوترينو ، ويحيط بها (أى بهذه البحيرة) غابات

ممتدة من البلوط ومستنقعات ضخمة ، وتشكل هذه النباتات وتلك المستنقعات تناقضا حادا مع الجبال الجيرية الجرداء التى يرى المرء قممها الشامخة فى خلفية الصورة على البعد .

والى الغرب يرى المرء ناحية اليمين الجزيرة الخضراء بتلالها ذوات التكوينات الجميلة وجبلها الشامخ دكا Decca وأشجار البلوط والزيتون ، وأشجار السرو الكثيرة وأشجار الفاكهة المزهرة ، وتتناثر فى كل مكان فى الجزيرة المنازل البيض الباهرة والقرى * حقيقة ، ياله من تناقض ، فإذا نظرنا للشمال وجدنا البر الألبانى غير المزروع والذى يسكنه جبليون محبون للقتال ، بينما الى اليمين تقبع كورفو المزدهرة التى حولها اليونانيون المحبون للتجارة والمتسمون بالمرونة الى حديقة غناء .

وعبرنا خليج ابسا Ipsa (١٢) ورأينا قلعتين ومدينة كورفو ذات الموقع الجيد على قنة الجبل الداخلة فى البحر وفى موقع متوسط على هذه القنة .

وكلما رأيت كورفو استولى هومر (١٣) على فكرى طوال فترة مرورى بين هذه الجزر الأيونية (١٤) ، وفى أيام صباى عندما كنت أقرأ الأوديسة (١٥) كنت أتخيل هذه الجزر خضراء يغمرها نور أزرق تحت سماء أشد زرقة ، وقد غمرتها أشعة الشمس الضاحكة فأضفت عليها لونا ذهبيا .

وتفاصيل المنظر ممثلة فى الأشجار المنتشرة فوق الصخور ، وقد تسلق فوقها اللبلاب فبدا كضفائر لها ، والشجيرات المزهرة والينابيع الرقراقة ، كل أولئك يذكر المرء بمناظر الباليه السحرية ، ويدعونى الى أن أطلب الصفيح ان شبهتها - أى هذه المناظر - تشبيها دنيويا ، فغالبا ما يتوقع المرء أن يرى ديانا (١٦) وقد طوقت خصرها ولوحت برمحتها الذهبى وهى خارجة مع الدغل . لكنه كان

علينا ان نعود لارض الواقع ، فقد سارت السفينة مرامار
بالصرب من ساحل المدينة حيث كان يتحتم علينا التوقف لبضع
ساعات للتزود بالمدعم ، وكورفو التي اعتادت أن تكون
هادئة ممعنه في الهدوء ، بدت الآن وكأنها تلبس لبوس
الحرب ، نفى جزيرة فيدو Vido المواجهة لكورفو اقيم
معسكر ، وامتلات الجزيرة الصغيرة بحشود العساكر ذوى
السترات الزرقاء * وكانت بعض السرايا تطلق النيران على
الأهداف ، وراحت قوارب عديدة تنقل المساكين الى احدى
البواخر ، وكما علمنا - بعد ذلك - فان احدى الكتائب
كانت تعباً في الجزيرة لارسالها في هذا المساء لليونان (١٧) ،
لقد كان الهيلينيون يحلمون حلم البطولة ولم يكن أهل كورفو
الطيّبون أقل استثارة ، فقد ظنوا أن أيام ليونيداز (١٨)
Leonidas سوف تبرز من جديد *

وبينما كنا في المرسى ، ظهر الدكتور نائباً عن القنصل
الذى كان يعاني من وعكة صحية وكذلك ظهر خادم القنصلية
Valet de place الذى كنت أعرفه في ظروف سابقة ،
وهو رجل ضئيل يشع المنظر ، ومن سوء الحظ أن هذا الإشعاع
كان من سلالة الاغريق ذوى الوسامة *

وقد فجع معظم رفاقي الدين لم يزوروا الجزيرة من
قبل بالأخبار التى أفادت أن مرض الجدرى سائد في المدينة *
لذا ، فقد كان ممنوعاً تماماً أن ننزل للبر ، فقضينا فترة
ما بعد الظهيرة في نزهة في زورق ملحق بالسفينة ، ومررنا
بالقرب من المدينة ، وكانت المساكن القديمة المتزاحمة ،
مقامة على مدرجات ، درجة تعلو درجة ، وكانت جدرانها
بيضاء متألقة ونوافذها خضراء وأسقفها مسستوية ، وكان
طابعها المام يذكر المرء بإيطاليا ومع هذا فكان ثمة طابع
اغريقى معين مرتبط بكل ملمح من ملامحها ، ويزيد من قوة
هذا الطابع الاغريقى ويوضحه تلك القباب المستديرة التى
تعلو الكنائس الأورثوذكسية *

ولما مررنا بالسور الصخرى للقلعة الفاطس عموديا في البحر سارت سفينتنا على طول الجانب الجنوبي لقنه الجبل الحارجيه منه والداخله في البحر، فرايناها قد عطتها الحدائق الغناء ! والفيالات الرائعات لاهالى دورفو الاغنياء ، وراينا المقصر الريفى الملكى ذا الموقع الجميل والبسديثونيسى Pondikonsi وضاحية كاستندرادس Kastrades ، والى الأدنى منه - على الساحل بين غابات أشجار الآس العطرية - تقبع بقايا (خرائب) معبد اسكولابىوس Aesculapius (١٩) القديم ، وواصلت سفينتنا الابحار الى خليج كارداكىو Karadakio الذى يعمق مدخله وجود جزيرتين صغيرتين ، وفى المقدمة صخرة ضخمة تغطيها أشجار البرتقال والسفرجل والسرو ، وضريح اغريقى قديم ومنزل لراهبين تابعين لمذهب القديس بازل Basil وتسمى هذه المنطقة بونديكونيس Pondikonis ، وكانت فى أصلها سفينة أوديسيوس Odiseus (٢٠) ثم سخطها بوسيدون Poseidon (٢١) فجعلها حجرا :

لكن صانع الزلازل اقترب منها ،

وصفّعها بيده المفلطحة صنعة حاسمة ،

وسخط السفينة حجرا ،

وغرسها هناك فى هذه البقعة ،

لنتكون شاهدا ،

على أن الخير قد ولى !

لقد تذكرت هذه الأبيات الشعرية وغرقت فى أفكار بعضها عن أيام الكفاح ودراسة الألعاب الرياضية ، وبعضها عن العالم السحرى للاغريق القدماء ، وخطونا فوق الجزيرة وتسلقنا جانبيها .

وقد حىى راهبان الغرباء القسامين ، وكان الراهبان
يلبسسان عبساعتين زرقاوين مهترئتين ، وكانا حافيين ،
وشعرهما طويل ، ولحيتهما مهملتان غير مرسجتين •

وكانت الكنيسة على الطراز الأورتودوكسى الحقيقى ،
فهى مقسمة الى قسمين يفصل بينهما حاجز مذهب ببذح ،
وعلى جدرانها صور مختلفة لقديسين وزخارف مذهبة
وبعض الكتابات الاغريقية ، وأمام الكنيسة أشجار فاكهة
مزهرة تبهج العيون القادمة من أرض الشتاء فى الشمال •
والمنظر من الجزيرة فى اتجاه كورفو والبحر منظر جذاب
فاتن ، وموطن مناسب للنسك الحالمين •

وعلى أية حال ، فقد كان يعوز هؤلاء الرهبان البؤساء
النظرة المتأملة ، كما كان يعوزهم روح الروع ، وانما كانوا
فى حالة ذهول كامل ، وربما كان هذا لرتابة الحياة التى
يحيونها • وكان الراهب الأكثر شبابا عاشقا للقطط ، وكان
معه رهبان آخرون يبدون وكأنهم يكادون يموتون جوعا ،
وكانوا يموءون بشكل يدعو للشفقة والرثاء ، وكانوا
يتبعون خطى هذا الراهب الأكثر شبابا • وكان فى الجزيرة
المواجهة مبنى له برج يقطنه نساك معتزلون • وبعد زيارة
قصيرة تحولنا الى مجموعة صيد فتجولنا بقواربنا فى خليج
كارداكيو Kardakio الضحل •

وتبعثر جمع طيور البلشون (٢٢) (مالك الحزين)
والغاق (٢٣) والغواص (٢٤) والبطل والنورس (٢٥) عند
محاولتنا الاقتراب •

واليونانيون — مثلهم فى ذلك مثل الايطاليين — يقتلون
كل شىء ويبدونه ، لذا فرياضة الصيد فى هذه المناطق
ليست متعة أكيدة • وقد نجحت — بعد محاولات عديدة —
فى اسقاط أحد طيور الغاق ، وابتهاجا بهذا وجهنا وجوهنا
صوب الوطن (٢٦) •

ولقد كان فى رؤيتنا لسهل بينيزا Benizza الأخضر
الجميل ، وجبل هوجيوى دكا Hogioi Decca ذى القمة الشاسعة
— خير عزاء لنا عن فشلنا فى الصيد ، وسرعان ما عدنا الى
سفينتنا ميرامار * لقد بدأ الليل يرخى سدوله ، واصبحت
البرودة شديدة ، وبعد العشاء كانت فى انتظارنا ليلة كئيبة
بعد هذا النهار الهادى *

واستيقظت مبكرا صباح الثالث عشر لأتحقق — بعد أن
أصابنى غثيان غير قليل — من أن كل شىء يدور حولى ،
فالمناضد والمقاعد والأسرة ، وكل شىء حولى كان يرقص ،
فالسفينة كانت تدور وتهتز بشدة ، وتصر صريرا مفرعا
بفعل الأمواج الصاخبة *

والقيت نظرة عجلي على العاصفة العنيفة ، لقد كانت
الأمواج ترتفع وكأنها جبال ويتحطم بعضها فوق بعض ، ثم
تصير زبدا بلوريا * وربما كانت العواصف البحرية هى
أشد المناظر التى تقدمها الطبيعة هولا خاصة اذا عاون البرق
والظلال والسحاب فى رسم الصورة * لقد كانت السحب
آنئذ تغطي السماء وراح ضوء البرق يخطف البصر بين
الفينة والأخرى *

لقد كنا بعيدا عن جزيرة سيفالونيا Cephalonia
التي كانت جبالها الشاهقة تعلو السحاب، وكان الجبل الأوسط
— مونت نيرو Monte Nero — هو الأجمل والأكثر شموخا ،
وكان الجبل الأبيض يكسو قمته * انه جبل اينوز. القديم
The ancient Ainos *

واعترانا الخوف من أن يغدو الجو أسوأ مما هو عليه ،
فقد كانت المنحدرات الصخرية متجهمة عابسة ، وكانت
الظلال رمادية غير ودودة *

وشقت سفينتنا الجسورة طريقها بين الامواج سقا
 حثيثا لئلا يعلو ، وفي منتصف النهار مرت على طول الحافة
 الغربية لجزيرة زانطة Zante (٢٧) ذات الجبال * ان منظرها
 في حاجة لريشة فنان * ووصلنا الى طرف الجزيرة الجنوبي *

وازدادت قسوة العاصفة فقرر القبطان ان يهود سمينته
 في قناة زانطة (الممر البحرى بينها وبين البر) باسبورها
 ملجأ آمنا وحددا عدنا المهرى بدلا من ان نطرح - في
 البحر - مسافة اطول * لقد وصلنا ببطء لطرف الجزيرة
 الجنوبي ثم عدنا في القناة (الممر البحرى) الواقع بين
 الجزيرة والبر الرئيسى المواجه لها * وسرعان ما قدمت لنا
 الجزيرة الحماية الدافية من الرياح الغربية العاتية * لقد
 كان البحر في هذا الممر هادئا ، وبعد هذه المعركة الحامية
 مع الموج الصاخب انزلت سفينتنا مرامار الى المدينة (ميناء
 زانطة) *

لقد أصبح في امكاننا الآن أن نلقى - بسرور - نظرة
 على المشهد الجميل ، فالى الشرق ، وراء الساحل المستوى -
 تقع أمام نواظرنا سلسلة الجبال اليونانية كلها * انها جبال
 البلوبونيز Peloponnosus ، بتراس Patras وأخيرا
 Achaia ، واليس Elis ، وقد غطت الثلوج قممها
 جميعا (٢٨) * والى الجنوب يقع سيفالونيا أجرد مكشوبا
 Cephalonia (٢٩) ، أما زانطة فالى الغرب منا ، وكانت
 هذه الجزيرة الجميلة - كغيرها من الجزر - مزدانة بجبال
 صخرية ذوات تكوينات جميلة ، وان كانت سهلها خصبة
 ملأى بالبساتين ، وتلالها تجللها الخضرة * أما جزيرة كورفو
 Corfu فأكثر بهجة ، تعج بالزروع وتهفو النفس للاقامة بها
 أكثر مما تهفو للاقامة بغيرها ، الا أن زانطة هي « ورده
 الشرق » كما يقول الايطاليون *

لقد كانت مدينة زانطة تمتد معانقة الخليج بمنازلها
 البيض ذوات الأسقف المسطحة وكنائسها الكثيرة ، وأبراجها

تقف شامخة بجوارها ، والتل بقلعته الصغيرة ، وكانت كلها
تنتشر بساطا أخضر سندسيا . انه منظر جميل ! .

لقد رست سفينتنا حالا فى مواجهة المدينة (زانطة)
وكأنه سفن أخرى عديدة قد فعلت ما فعلناه فلجات للميناء
مروبا من العاصفة . لقد نزلنا للشاطئ بعد ان زارنا
الطبيب " ولم نخل زيارتنا لزانطة من متعة فلها شخصيتها
الخاصة بها ، فذمة بقايا من ازدهار غابر ، اما الان مضربها
بغير استثناء ضيقة جدا ، وكثير منها يصعد لها المرء بدرجات
(ساللم) ولا يمكن ان يمر بها الانسان الا سائرا على قدميه
(لا تسمح بسرور الراكبين) ، والخنازير تتمرغ فى الساعات
الرئيسية (الميادين) ، وتعج المدينة بروائح نتنة لا تطاق .
وكثير من منازلها ليس بها نوافذ زجاجية فليس ثمة
الا مغاليق تتأرجح فى الهواء ، ولا حلية أخرى ، وان كانت
كثير من هذه المساكن ذوات طبرز معمارية قديمة وجميلة
تذكرنا بالقصور الايطالية ، أما الكنائس فزينة المدينة ،
بل هى الملمح الأساسى الجميل بها . انها أماكن العبادة
اليونانية ، التى تتبع المذهب الأورثوذكسى ومن الغرابة أن
تكون أبراج أجراسها على نسق أبراج كنائس القديس مرقس
Mark's ويلاحظ أن كهانها ذوو ثياب رثة . وكان هذا
اليوم هو يوم الاحتفال بذكرى أحد القديسين اليونانيين ،
وراح المؤمنون يقبلون الأوعية التى تحفظ فيها الدخائر
الدينية وكان شكل هذه الأوعية فظا خاليا من الذوق . لقد
حدث هذا فى الكنيسة الكبرى .

ان التجوال فى المدينة (زانطة) يعطى انطبعا مشوقا .
فاحدى الحقائق التى يكتشفها المتجول هى هذا الشبه الصارخ
بين المدن من الداخل فى ثلاث ممالك أوروبية جنوبية .

ففى زانطة يمكنك أن تتصور نفسك فى مدينة ايطالية
أو أسبانية خربة ، حيث يمكن رؤية كل جوانب الحياة فى
الطرق . فأسام المقاهى العديدة يجلس الرجال بقبعاتهم

ذوات الحواف العريضة وقد لفوا الشيلان من فماس مريح
 نفتته حول اختافهم ، وقد لبسوا تيابا باييه ، وراستوا
 يتارجحون بكسل على مقاعد قواعدها من قش وللواحد منها
 ثلاث ارجل ، بينما فنجان القهوة موضوع امام الواحد منهم
 على كرسى آخر وقد أمسك كل واحد بسيجار - تارجح حسون
 وفنجان قهوة وسيجار ، وراحوا يثرثرون ويصححون
 ويغمزون - ان حياة الناس وعاداتهم هنا متشابهة الشبه كله
 مع حياة الناس وعاداتهم فى المدن الايطالية والاسبانية ،
 فهنا تجد القهوة والسجائر التركية والاعلانات اليونانية
 والكنهة بقبعاتهم المستديرة العالية ، وهناك تجد الشيذولاته
 والسيجار الهافانى (من هافانا) ، رجال الدين الكاتوليك
 بقبعاتهم ذوات الزوايا الثلاث - لا بأس من هذا الاختلاف ،
 فحقيقة الأمر أن الناس هنا وهناك متشابهون فى عاداتهم
 وأساليب حياتهم - ويمكنك أن ترى وجوها جميلة صبوحة
 بين الشابات . أما العجائز من النساء فيالهول منظرهن ، اذ
 لا يقدر على رؤيتهن الا أهل الجنوب الأوربي .

لقد صعدنا الى تل القلعة بعد أن مررنا بطرقات مختلفة
 وبمنازل بائسة ونحن نركب عربة (دروسكية) لا تليق
 الا بمدينة ألمانية - لقد كان الطريق متعرجا منحدرًا بشدة
 كما كان محفوفًا عن أيا مننا وشمائلنا بسيجاج من نبات
 الصبار وأشجار الفاكهة وبعض النخيل هنا وهناك .

ولا يستطيع أحد الوصول الى القمة فالطريق ينتهى
 فجأة وتعوقه بعض أكوام من الحجارة - فكان يتحتم علينا أن
 نكمل ما بقى من الطريق سيرا على الأقدام .

لقد كان التل غاصا بالجنود ، فهنا أيضا ، توجد كتية
 سبق استدعاؤها ، وقد شرح لنا القائد - وهو رجل مثقف
 عاش فى باريس - بفرنسية سوية كل شئ ، فالقلعة مهدمة ،
 لذا فقد جعلوا الجنود فى حظائر مدرعة وفى الأكواخ .

لقد كان المنظر من القلعة يسترعى النظر ، فالى الشرق — عبر القناة (الماصل المائى) يوجد الساحل اليونانى ، وإلى الادنى — عند اقدامنا — توجد المدينة ، وعلى طول الجانب الجنوبى للنل توجد حدائق زاهرة • وعند المنحدر الغربى للنل توجد تربة طفلية وتكوينات طميية صفراء ذكرتنى يشدة بجبال مورسيا Murcia فى اسبانيا • وتمتد على طول الساحل الشرقى للجزيرة سلسلة من التلال المكسوة بالاشجار بينما تلال الساحل الغربى جرداء قاحلة ، وبين هاتين السلسلتين سهل عريض منخفض ، ويفصل هذا كله عن طرف الجزيرة الشمالى شريط ضيق مستنقعى يبدأ بالقرب من المدينة ، أما طرف الجزيرة الجنوبى فقد زانه جبل سكوبو Mount Shopo وهو كتلة صخرية مستقلة منفصلة عن بقية السلسلة كلها •

وبدا أننا غير قادرين على اشباع رغبتنا بالتمتع فى الصورة الحية الرائعة الكائنة أمامنا ، فتباين الجبال والتلال التى تكسوها الخضرة ومدينة زانطة نفسها ومياه الفاصل المائى (القناة) ذى الزرقة الهادئة ، والبحر العاصف فيما وراء البرازخ ، كل ذلك شكل أمامنا خليطا متشابكا مؤثرا جدا بحيث يصعب التأمل فى أى عنصر من عناصر المشهد على حدة • وبدأ المنظر أكثر جلالا عندما تجمعت السحب الداكنة الرعدية فوق الجبال • واشتدت الرياح ولمع البرق ودوى الرعد وهطلت السماء بغزارة ، فجعلنا كل ذلك نعود سراعا الى مرامار •

وفى صباح اليوم التالى لم يكن الموح مناسباً للابحار فقرر القبطان أن نقضى النهار — على الأقل — فى زانطة • فقررنا أن نصعد جبل سكوبو • ومن رصيف الميناء استقللنا عربة تجرها خيول صغير حجمها جدا ، فسارت بنا فى عدد من الشوارع وتجاوزنا آخر منازل المدينة وسرنا على طول الساحل — وسرعان ما انتهى الطريق الذى يمكن للعربة أن

تسير فيه فسرنا على الافدام بين حصول وسداس بين اسببر
الزينون وعبر ممرات ماويه جافه حتى وصلنا بسبح الربيع *
وفسمننا فريق التسلق الى فسمين * وقد قصرت مبدرا اسر
المساحن التى يقطنها بشر (٢٢) ثم صعدت منحدرنا مسديدا
تتمو عليه شجيرات كتيعة ، ومازلت اصعد حتى وجدت بسى
على بعض الالواح الحجرية وأكوام الدبش *

لقد كان تسلق الجبل شاقا ولا يبعث على الارتياح ، فقد
كانت الشمس تسفعا بضراوة وكنا قد ارهقنا انفسنا -
دون مبرر - بحمل بنادقنا ، فقد كان صيد ذوات الأربع امرا
غير قائم أما الطيور فلم تكن كثيرة هنا خلا بعض طيور أوريا
الوسطى التى لجأت الى هنا طلبا للدفع فى الشتاء *

وفوق قمة الجبل يوجد معبد يونانى صغير بسيط وليس
فيه ما يثير والى جواره مسكن الكاهن وخادمه ، وكلاهما -
المعبد والمسكن - يتسمان بالقذارة والاهمال ويكادان
يسقطان *

وبالقرب منهما مخروط صخرى ذو تكوين مميز ، ويبدو
هذا المخروط الصخرى على البعد جديرا بالرؤية ، فقد
استرعى انتباهنا عندما رأيناه ونحن فى البحر فى اليوم
السابق *

وكان علينا أن نتسلق هذا المخروط الصخرى باعتباره
أعلى نقطة فوق الجبل فزحفنا بشق الأنفس حتى وصلنا للقمة
ووضعنا هناك علما مكونا من منديل جيب وعصا *

لقد كان المنظر - على البعد - جميلا جدا ، لكننا لم
نمكث طويلا لنستمتع به ، لأن الاعصار البحرى أصابنا
بزخات مطر شديدة * ودعانا القس لبيته لتناول جرة
نبيذ * وكان الرجل (القس) تبدو عليه سيماء الوقار بلحيته
الطويلة وشعره المنساب كشلال ، وقدم لنا بطريفة وده د

بعض العجين الرديء جدا المصنوع من حليب الماعز وخيزا
وبعضنا من النبيذ الجيد جدا مما تنتجه المنطقة ، لكنه شديد
المفعول مما ذكرنى بجرعات النبيذ الشائعة فى اسبانيا *
وكانت الغرفة التى استقبلنا فيها تشبه تماما القوندا ----
الاسبانية الصغيرة وقد غطيت أرضيتها بحصر مهترئة ، أما
المقاعد فمكسورة ، والجدران عارية ، وهواؤها ثقيل كئيب
رطب * وتؤكد صورة العذراء المسودة على الجدار الوطنية
اليونانية *

Ablackened Virgin on the Wall Vouched for the Greek nationality

وبعد أن تناولنا وجبتنا البسيطة استأذنا القس الكريم
وهبطنا الجبل * وتجاوزنا بعضا من مجموعات النخيل الجميلة
وبين الأدغال الكثيفة والزهور والينابيع ذوات البقبة كانت
توجد بقع كالتى يتخيلها المرء عند قراءته للميثولوجيا
الاغريقية (الأساطير الاغريقية) اذ كانت مناسبة لرياضة
الآلهة المرحة *

ومرة أخرى عبرنا الحدائق لنصل للساحل ، وقضينا
فترة ما بعد الظهر والمساء فوق ظهر السفينة *

وقد أجبرتنا التقارير عن أحوال الجو غير الملائمة الى
قضاء يوم آخر فى زانطة فكان لابد من تدبير أمر نزهة
جديدة فبدأنا مبكرا فى صباح الخامس عشر من الشهر فى
الاتجاه الى طرف الجزيرة الشمالى ، فاتجهنا فى العربة
نفسها التى أوصلتنا فى اليوم السابق واخترقنا شوارع ثم
قطعنا طريق الجزيرة المبسوط بشكل جيد والمحفوف
بالدائق ، وبعد ذلك كان عن أيامنا سلسلة جبال خضر وعن
شمائلنا جبال جرداء وعرة ، ومررنا ببعض المنازل المنعزلة
وبقرى صغيرة * وقابلنا الفلاحون وهم يحملون نتاج حقولهم
الى المدينة (زانطة) وكان بعضهم يسير على الأقدام أما غالبهم
فكان يستخدم حميرا بائس منظرها صغيرة الحجم ، أو عربات

للواحدة منها عجلتان • لقد تأملتهم جيدا ، فبدوا لى على نحو ما جنسا ضئيل الحجم داكن الجلد والشعر أما ازيائهم فلا هى جذابة ولا مبهجة ولا ملائمة فسرأويلهم واسعة وينتعلون أحذية تشبه الأخفاف (جمع خف بضم الخاء) الدماشية (٣٠) ، ويضعون على رؤوسهم طواقى صغيرة أو قبعات عريضة أطرافها ، ويحمل كثيرون منهم بنادق للواحدة منها ماسورة واحدة •

وبعد ساعتين اقترب الطريق من الجبال فكانت عن أيامنا تنتهى الى بحيرة ضحلة ، بينما تتلأأ مياه الأدرىاتينكى الزرقاء على البعد •

وتتلاقى الجبال عن شمائلنا بالساحل بجدار صخرى عمودى وينتهى الطريق عند قرية مشيدة على مدرجات متحد جانب الجبل • والجبال الشاهقة التى أصبحنا عندها الآن قاحلة تماما من هذا الجانب فلا أثر للخضرة فى جلاميدها وجروفها شديدة الانحدار ، وانطلقنا من القرية سيرا على الاقدام حول قاعدة الجرف الشامخ الواقع بينها وبين البحر وسرعان ما وصلنا لطرف الجزيرة الشمالى • يا لروعة المنظر! لقد رأينا سيفالونيا Cephalonia الواقع صوب الشمال • وكان أمامنا مباشرة حوض واد ضيق تنمو فيه غابة بلوط فى وسطها دير تكاد تخفيه الأشجار يقع بين تلين • واتجهنا الى كنيسة الدير التى كانت تفص بالتحف والصور حيث المداخر المذهبة (أوعية وصناديق لحفظ الآثار والمحفوظات الدينية) وصور القديسين السوداء • وبدا الموضع مكانا أثيرا لدى الحجاج •

ودعانا بعض القسس الودودين لتناول الغداء فى الدير ، وعندما استفسرت عن الصيد فى هذه الأنحاء اقترح الرجال الطيبون بلسان واحد أن نقتنص الأرناب البرية • وبعد أن انتهينا من تناول الطعام بدأنا رياضتنا بارشاد

اصفر القسس الذى ارتدى عباءة قصيرة وسروالا ازرق واسعا وخفا ، ووضع على راسه بيرتا (biretta) (فندسوه) مربعة يعتم بها بعض رجال الدين (٣١) وحمل بندقيته حلويله ، وتبمه كلبان من سلالة غير عريقة وفلاح .

ورحنا نصعد لأكثر من ساعة فى وهاد كثيية شديدة الانحدار ، فلا يرى المرء عن يمينه وشماله الا منحدرات ولا شئ غير حجارة ناعمة بيضاء تحير النظر لكثرة ما ينبعث منها من ضياء ، وكان يتخلل الصخور شريط ضيق من شجيرات ذوات خضرة داكنة وتركت الشمس بصماتها عليها كما هو الحال فى كثير من جبال المناطق الجنوبية فى دماشيا واسبانيا .

وراحت الكلاب تتشمم حول الصخور وراح القسس يقفز بنشاط من صخرة لصخرة ، حاملا بندقيته المحشوة مسننعا لأطلاقها ، لكن شيئا مشيرا لم يحدث . وحامت بعض النسور الضخمة عاليا فى الهواء .

وأخيرا وصلنا لقمة الجبل فتجلى أمامنا منظر البحر الجليل ، وكان فى امكاننا أن نرى على البعد منظرا شاملا للجبل بأحجاره وصخوره وقممه وأطرافه .

واسترحنا قرابة ربع الساعة ، وسمعنا طلقات متعددة تقذف من مكان قريب ، وسرعان ما ظهر بعض الفلاحين يحملون بنادقهم . لقد كانوا قد فقدوا أحد الأرانب البرية .

وفى طريق عودتنا ظللت متمسكا بالمواضع المرتفعة واتخذت أقصر الطرق للدير (أنف الذكر) وفجأة جرى أمامى أرنب برى صغير (ربما كان من نوع أرانب البحر المتوسط Lepus Mediterraneus) (٣٢) ، وكانت المسافة بينى وبينه بعيدة فلم أطلق عليه النار ، لكن القسس والكلاب اندفعوا يثبون وراء الحيوان النبيل ومن الطبيعى أن يكون

الأرنب هو الأسرع فاخترنى فى الحال ، ويلعب الأرنب البرى دورا مهما فى زانطة - تشدرا لندرتة التشديدة ، رعاع اسير البئاس بعد مطاردته الفاشلة يلهث ويتمنم ويختلب باليونانية *

ولما وصلنا للدير اسرعنا الى عرباتنا فقد انقضى من صباح النهار بوقت طويل ، وسرنا بالعربات طويلا وكان سندا جميلا ، لكننا كنا نشعر بالبرد وحل المساء قبل ان نصل الى مرامار ويدت لنا زانطة جميلة الجمال كله وهى تسبح فى ضوء القمر ، وغادرتها فى الصباح بعد ان وصلت تسارير تفيد أن حالة الجو تسمح لنا باستكمال رحلتنا *

كان صباح السادس عشر من الشهر طيب المناخ ، وكان البحر يبدو كصفحة زجاجية ، لقد تحركنا بالفعل فى الساعة الرابعة صباحا ومتعنا العيون بمناظر لطيفة وذكرتنى جبال أركاديا Arcadia ومسينيا Messenia التى يجعلها الجبل يجمال الساحل الاسبانى الشمالى (٣٣) * لقد كان مثيرا ذلك التناقض اللونى بين زرقة السماء العميقة وبياض القمم الثلجية ، وكلما أوغلنا للجنوب أصبحت الألوان فاتحة وقلت الجبال الصخرية ، وأصبحنا نرى تلالا متدرجة الصفرة كجبال شبه جزيرة أيبيريا القاحلة *

وتجاوزنا نافارينو Navarino وبعد ذلك رأينا رأس ماتابان Matapan ذات التماريج ، ثم تتابعت الجزيرتان الصخريتان أريجو Arigo وأريجيتو Arigetto ، وبعد الظهر ظهر لنا فى الأفق جبل كنديا Candia (٣٤) ، وفى المساء مررنا بالطرف الغربى لهذه الجزيرة الجميلة الكبيرة ، وفى ضوء القمر رأينا شكلا ضبابيا لجبال كريت * وقضينا ساعات بهيجة فوق السفينة نستمتع بقمر الجنوب المتألق وهو يلقي بضياءه على موج البحر *

وفى اليوم التالى خان الجو هادنا وجميلا ايضا فاستمتعنا
بهواء البحر الدلى ، وفى الصبح الباكر كما لازلنا نرى
حديا Canua ، وكنا نرى جبل ايدا Ida المدهش زهيره
من الجبال العاليه فى الجزيرة مطاة بطبقات خفيفه من
الجليد * وعند الظهر احسنا باقترابنا من افريقيا وسعدنا
للمرة الاولى بالدفء القادم * ثم هو مبهج ان تستلقى فوق
ظهر السفينه مستمتعا بدفء شمس الجنوب ، وان تفرح فى
البرودة التى خلدناها وراءنا فى وسط اوروبا منذ أيام قاتل *
وتجاوزنا احدى بواخر لويد Lloyd's Steamers ، وفيما عدا
ذلك فقد كان كل شىء ساكنا فوق صفحة الماء الممتدة *

واستيقظنا فى الثامن عشر من فبراير لنستمتع بجو
رائع وسان أول ما يادر به بعضنا بعضا هذا السؤال : ألم
يظهر البحر الأفريقى بعد ؟ * لا شىء أمانا سوى الماء على
امتداد البصر * وفى الساعة الثامنة صباحا ظهر لنا الساحل
الأفريقى شيئا فشيئا وبدأت - فى الأفق - بعض مآذن
الاسكندرية ، فعيها كل المسافرين معنا بالصباح والتهليل *

تلك هى المرة الثانية التى تتاح لى فيها رؤية قارة
أفريقيا ، أما المرة الأولى فقد أعجبت فيها بالسواحل الصخرية
لمنطقة أهللس Atlas region ، أما الآن فقد كنت سعيدا
فرحا عندما رأيت الساحل المستوى لمصر المقدسة Sacred
Egypt (٣٥) *

التوصل الثاني

الوصول للاسكندرية - يوم لى الاسكندرية -
 مسيحيو الشرق الأدنى لى مصر - اردحام احياء
 الاسكندرية - التشبه بين العرب واليهود - الحى
 الأوربي - الجنس المختلط - اهل الاسكندرية -
 المحطة الجنوبية - الرملة - نرمة المعمودية -
 جنينة النزهة - لا وجود للعاهرات - الثرى
 اليونانى - أكوام القمامة - عمود بمباى -
 الندابون المستأجرون - خط القطار - سبب
 شمال الدلتا - البدو يعبرون الأراضى الزراعية
 بجمالهم - دمنهور - كفر الزيات - طنطا - الالهة
 بباستيس - مولد أحمد البدوى بطنطا يعج
 بالفجور - بنها العسل - حديث عن مقتل عباس
 باشا حلمى بقصره فى بنها - الوصول للقاهرة -
 شبرا - قلعة قصر النزهة - الحى العربى بالقاهرة
 - قصر طوسون - مزارع القصب - الخولى
 والكرج - خوف الفلاح من الملابس الرسمية -
 حى القاهرة القديمة - مسجد قصر العين - زيارة
 كنيسة قبطية - قبط مصر ينتمون للحرق نفسه
 الذى ينتمى اليه المصريون الآخرون - القبطيات
 محجبات - الأزهر كمركز لتفسيرين التعصب
 والرد على ذلك - الموسيقى - الغش اليهودى والعربى
 - الأهرام - الأوبكية - الصيد فى هليوبولس -
 المحجر - رسوم الفنان المصاحب للرحلة - تعليقات
 المترجم *

يبدو الساحل المصرى للرائى كموجات من تلال رملية، ترتفع هنا وهناك على شكل كتبان صفراء شكلتها الرياح (١) .

وأول ما يصادح الذئير بعض المآذن المسامفة ، ثم المنارة ، وبعض الطواحين الهوائية خارج المدينة . وسرعان ما ارتفع أمامنا قصر مصطفى باشا وناثما انبتق من بين الأمواج ، وكان الذئير ذا طابع شرقى خيالى ، رهو متخصص لنائب الخديو (٢) .

والآن ، أصبح وصولنا للاسكندرية حقيفة واقعة ، فاتجه أحد القوارب نحو سفينتنا بعد ان رشح من ندبا العلم ، ليهتد للشارب هدفه . وقام هؤلاء الشرقيون - وهم ليسوا عربا خالصا - فالعاملون «ى صناعة البحر ، هم بساعات من اجناس مختلطة - قاموا بالتجديف بقوة ونشاط ، حتى وصلوا بالقرب الينا . وكان هؤلاء البحارة ذوى جلود سمراء مصفرة ، ويلبسون ملابس كالتى يلبسها أهل آسيا الصغرى ، وعلى رؤوسهم عمام ، وكانوا يصيحون ويومئون لنا كلما اقتربوا منا . وكان يجلس بينهم رجل داكن البشرة يرتدى لباسا شرقيا جميلا ، وقد لف حول رأسه غترة (لفاع أو وشاح) ، وكان له لحية جمعدة سوداء ، أعطت انطباعا واضحا بأنه عربى . وكانت يداه السمراوان مزدانتين بحلقات من فضة (يقصد الخواتم غالبا) (٣) .

لقد هدأنا من سرعتنا وتسلق المرشد السلم يهدوء ووقار وبعد أن تبادلنا التحية ، جلس فى مكانه عند عجلة التوجيه ، وتم ربط قاربه بالبحال بسفينتنا . وتقدمنا نحو قناة حجرية ضيقة تصل للميناء القديم .

وجذبت انتباهنا قلعة سميد باشا الملك (٤) Said Pasha el-Mek ، وكانت تقع عن أيامننا ، بعمارتها التى تدعو للتأمل ، ورأينا عدة مدافع وبعض بساتين نخيل ولما درنا حول حائل الأمواج دخلنا الميناء ، فتجلى لنا منظر مدينة الاسكندرية البهى .

ولولا الماذن وبعض المباني الضخمة ذات الطراز العربى ،
 لظن المسرعة بسبب زراع بعض مواسىء اوروبا الجتسوبيي -
 فلدسندريه بان تشاء - منظر المدن الاوربية اذا نظرنا اليها
 من الخارج "

لقد تبلى لنا المشهد الفريد ونحن نعبى حائل الامواج
 (جدار لحماية المرفأ من شدة الامواج) فانطلقت المدافع
 تحية لنا ، وحيتنا السفن الحربية التركية : السفينة محمد
 على ، والسفينة المحروسة Makkarosa ريخت الخديو
 وقام البحارة باعداد الصواري ، وكانوا يرتدون زيا له
 طابع عسكري على نحو ما ، كما كانوا يضعون الطرايش
 فوق رؤوسهم * وهبت علينا روح الشرق القديمة الجميلة
 ممثلة فى العزف السلطاني (السلام السلطاني التركي)
 الذين يجعلنا نتذكر بشكل ما السلام القيصري المجري ، بينما
 كنا نستمع لموسيقى الخديو (المعزوفة الموسيقية المميزة
 لخديو مصر) تعزف فى اليخت *

وكان طاقم السفينة النمساوية لويدي Lloyd يرتدون
 ملابس ملونة ذوات طابع احتفالى * وكان الميناء غاصا
 بالسفن ، واصطف لتحيتنا عليه القوم فى الامبراطورية
 التركية ، كانوا بيضا كفوالق الأقمار على بسط حمراء بلون
 الدم *

واحتشدت على امتداد الماء قوارب ملأى بالعرب من كل
 الطبقات : فمنهم الغنى ومنهم الفقير لكنهم كانوا يلبسون
 ملابس فاخرة لها طابع خاص * انها فى حاجة لريشة فنان ،
 ورأينا كثيرا من أهل المدن ، من الشرق الأدنى (Levantines)
 واليونانيين والايطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع على
 رأسه طربوشا بينما كان آخرون بغير طرايش *

وقدم الينا أعضاء الجالية النمساوية المجرية (٥) فى
 لنشات بخارية مزدانة بشكل بهيج ، وعزف فريقهم الموسيقى

موسيقيا : « يحفظ الله الامبراطور » (٦) ولوح لنسا اهل
 دالماتيا Dalmatians بزيهم الاخضر والابيض الذى
 يرتديه اهل وديان بوشى دى كاترو Bocchi di Cattaro
 وقد لقموا الشرائط الربطة لأسلحتهم حول أجسادهم النحيلة *
 وقد بدا مسيحيو الشرق الأدنى هؤلاء ، فى زيهم متناقضين
 - بشكل صارخ - مع المسلمين ذوى الملابس الشرقية زاهية
 الألوان * ولا يمكن مقارنة هذا الخليط الهائل من الاعلام
 والألوان والأزياء التى كانت تحيط بنا فى هذه القوارب
 ذوات العدد الا بالمشكال الزجاجى الذى يبعث مالا حصر له
 من الألوان عند تعرضه للضوء * وبعد أن وصلنا أخيرا الى
 عوامة ارشاد السفن راح الناس يلوحون - بشكل فضولى -
 حول سفينتنا *

وسرعان ما قدم البارون شيفر Baron Schaffer القنصل
 العام ومعه أعضاء القنصلية النمساوية ، وبعد أن تلقينا
 التحية منهم كان علينا أن نستقبل أصحاب المقام الرفيع من
 اهل البلاد الذين قدموا إلينا فى بوارج الاحتفالات
 (الاستقبالات) وكان على رأسهم مصطفى باشا Mustapha Pasha
 وزير الخارجية (٧) ، مبعوثا من سيده فى القاهرة
 لاستقبالنا ، وتبعهم عدد من الجنرالات ورؤيس الميناء ، كما
 حضر عبد القادر باشا فى لباس جنرال مصرى (رئيس فرقة)
 Egyptian General of Division * لقد كان الخديو موفقا فى
 تعيين هذا الرجل المقبول المتحضر المخلط ، فنصفه تركى
 ونصفه عربى - ليشراف على أمورنا أثناء رحلتنا لمصر * لقد
 تعلمنا فردا فردا كيف نقدره ونحترمه وكنا نفارقه يومئذ
 - بعد طول تجوال - آسفين لفراقه * وبمجرد أن ينسحب
 المصريون ذوو المكانة ، يأتى إلينا المقيمون النمساويون *

ومن الملاحظ أن عددا كبيرا من النمساويين من مختلف
 أنحاء المملكة موجودون هنا ، بالاضافة الى عديد من

الدالماتيين Dalmatians لهم دور كبير في بيوت المالك
 الخبرى ، وعلى ايه حال فان غابيه النمساويين هنا ليسوا
 نمساويين بالمولد - انهم من اهل الشرق الادنى Levantines
 بمختلف جنسياته ، اتوا الى هنا بحثا عن التجارة الامنه ،
 وفوق كل ذلك ليقدّموا الشكر لنشاط سفينتنا لويدي
 حقق شهرة رائعه ، رغم أن هذا النشاط لا يقدر بما فيه
 الكفاية في الوطن (النمسا) ، وقد وضع هؤلاء الشرقيون
 Levantines أنفسهم تحت حماية بلدنا ، (حصلوا على
 الحماية النمساوية) (٨) *

وبعد أن تناقشنا لبعض الوقت مع افراد مختلفين منهم
 وجدنا أن بعضهم كان من مواطنينا (نمساويا) بالميلاد ،
 أما الآخرون فكانوا نمساويين بالاسم فقط - عدنا الى
 كبائننا بعد أن غادروا السفينة ميرامار ، وغرنا ملايسنا
 الرسمية وارتيدينا أخرى مدنية - وسرعان ما نزلنا جميعا على
 سلاّم الميناء حيث كان فى استقبالنا البارون شيفر Scharrer
 ودلفنا الى مركبات كانت فى انتظارنا ، وتزاحم حولنا
 الحمالون (مفردهم حمال Hamal) ويسمون أيضا
 الشيالين (مفردهم شيال Scheyyal) وهم طائفة من
 أفقر العرب لهم أذرع عارية وسيقان بنية نحيلة قوية ،
 وقمصانهم زرق ويربطون خواصرهم بأحزمة محكمة ،
 وموظفو الجمارك الذين يلبسون اللباس الأوربي ، والبحارة
 الأتراك وعمال الرصيف ، وكان منظر كثيرين منهم ملفتاً
 للنظر - لقد أحاط بنا الجميع وراحوا يحملقون فينا
 بنضول -

لقد أحسن الخديو صنعا بوضعه بعض حافلاته فى
 خدمتنا - لقد كانت الحافلات ، وكذلك الخيول انجليزية ،
 أما الخدم فكانوا - بدون استثناء - فرنسيين ، وكان زيهم
 أوربيا تماما ليس فيه من الشرق الا الطربوش - أما خارج

المركبات فكان هناك من يجرون دائما أمامها وهم يصنخون ويصيحون بلا كلل ولا ملل ، وكانوا يلبسون ملايس غريبة بأكمام واسعة بيضاء وفي أيديهم هراوات طويلة ، وكانوا نحال البنية وإقدامهم رشيقه .

ولم نعرف فائدة هؤلاء المعينين للجري أمام حاملاتنا الا عندما مررنا بالاحياء العربية الضيقة في الاسطندرية ، فيدون هؤلاء كان سيئعذر مرورنا الا بصعوبة بين هذا الحشد من البشر والبهائم ، بل وكنا سنضطر للتوقف كثيرا .

وبمجرد معادرتنا للمناطق المحيطة بالميناء ظهرت امامنا الحياة الشرقية بكل ابعادها " الشوارع الضيقة التي تحفها منائر على الطراز العربى ، ملاى بحشود البشر من كل لون : فالحمارون يصيحون ، والسقاةون الذين لا غنى عنهم ، والبائعون الذين يبيعون بضائع مختلفة ، والفلاحون ذوو الجلابيب الزرق ، يطوحون ببرانسهم (المفرد برنس) البيضاء الزاهية Pure White burnous ، والنسوة اللائى فى ملايسهن طيات تدل على الثراء ، وقد وضعن فوق رؤوسهن زينات ذات طابع قديم وكأنها أوراق نبات ابريقى الأوراق antique pitchers (٩) والمتسولون المصابون بالعمى بعصيتهم الطويلة ، وأولاد صغار كالقنفذ وصنخ وضجة وشغب لا يمكن أن توجد الا فى الشرق ، وقد دهشنا غاية الدهشة من الأتراك وأبناء آسيا الصغرى بسبب ملايسهم الزاهية ألوانها . لقد كانوا مختلفين تماما حتى فى طريقة التعبير عن العرب ، وكانت جلودهم أرق وأقل دكنة . فالعربى الحقيقى داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة وشكله رقيق لكنه مفعم رجولة . والعربى ، وان كان أرقى من اليهودى Israelite بكل المقاييس ، الا أنه يشبهه بشكل واضح لا تخطئه العين (١٠) . والفلاحون الذين يزرعون التلال ليسوا غربا خلصا ، انهم أقرب شباها بالمصريين القدماء ،

وأظن أنهم السكان الأصليون لمصر وسأتناول هذا الموضوع
بتفصيل أكثر في موضع آخر (١١) .

وبعد أن عبرنا هذه الشوارع الشرقية وصلنا الى الجانب
الأوربي من المدينة (الاسكندرية) ، حيث الشوارع العريضة
والمنازل الجديلة على الباراز الأوربي والمباني الواسعة وبدأ
أن ساحه محمد على هي مركز الحي وأكثر المواضع بهاء .
ولا اجد ضرورة لوصف ملامح الأوربيين من سكان الموانئ
(موانئ البحر المتوسط) .

وللأسكندرية هذه الشخصية تماما فرغم انتظام شوارعها
وجمالها . الا أن شيئا ما عالقا بها يعد غريبا بالنسبة لنا .
فالقذارة الشرفية والقوضى (الاهمال) التي لفتت النظر
للمدن العربية لا تنفي أنها - أن هذه المدن - تحذو حذو
العمارة الغربية وتحاكيها محاكاة كاملة ، فأنت تحس في
كل خدوة تخطوها بوجود الغريب الذي يسعى لوضع أثره
على العالم الأجنبي " وتغطي الرمال القادمة من الصحراء
المدن الاوربية (يقصد المدن الشرقية ذات الطابع
الأوربي) (١٢) وتجعل وجوه الأجانب الطامعين في الكسب
- شاحبة .

لقد وصلنا لساحة محمد على بعد أن مررنا ببعض
الشوارع الرئيسية ، وفي وسط الساحة (الميدان) يقبع
تمثال المقاتل العظيم محمد على على صهوة جواد ، ومحمد
على هو الابن المغامر والناجح لاحد الحراس المقدونيين من
قولة kawala ولم يكن اهتمام محمد على البالغ بمدينة
الاسكندرية عبثا أو بلا هدف ، فقد يقارنه العالم بالاسكندر
الأكبر . ان كان - أي محمد على - قد نجح في تطويرها في
مختلف المجالات .

ويجد المسافر نفسه فى الاسكندرية فوق ارض تاريخية لكن هذه المدينة لن تستعيد مرة أخرى عظمة وبهاء ، كالعظمة والبهاء التى كانت عليهما أيام مكتبة الاسكندرية العظيمة ، عندما كانت مركزا للفن والأدب ومختلف العلوم .

ان الشوارع الأوروبية مفعمة بالحياة والنشاط (يقصد الشوارع ذات الطابع الاوربى بالاسكندرية) (١٢) فلناس لهم منظر الجنس المحلل - بشكل واضح يفوق الوصف - بحيث يمكن وصفهم بأنهم من الشرق الأدنى (١٤) Levantine ان ملامحهم خليط من ملامح الايطاليين واليونانيين والارمن والأتراك - وكلهم يلبسون اللباس الأوربى ، الا انهم - بشكل عام - يضعون فوق رؤوسهم الطرابيش - وبالإضافة لذلك فقد رأيت أزياء دالماتية Dalmatian وألبانية بالإضافة للأزياء التركية وأزياء آسيا الصغرى Turkish, and the of Asia Minor

والرهبان اليونانيون هنا كثيرون كما رأيت بعض الفرنسيون ، ويظهر الحمارون (بتشديد الميم) والحمالون والسقامون فى الشوارع الأوروبية (بالاسكندرية) وان كان العدد الأكبر منهم يوجد فى شوارع الحى العربى - ويقف البربر البربر والنوبيون أمام بيوت البنكيين الأثرياء لمجرد التباهى والمظهرية دون أن يقوموا بعمل محدد .

لقد عدنا أدراجنا الى الحى العربى بعد أن أصابنا الازعاج من الشوارع المستقيمة - لقد وصلنا الى الحياة الشرقية الصميمة ، بدخولنا بعض الحوارى الضيقة المشيدة على النسق الشرقى حيث للمنازل مشربيات مخصصة للنساء ، وهذه المشربيات عبارة عن نوافذ مغطاة بخشب شمعى مقصّب (١٥) - لقد أصبحت حافلتنا تسير أبطأ فأبطأ حتى اضطررنا أخيرا لتركها وسرنا على أقدامنا فى السوق .

ولا يمكن للاسكندرية أن تزعم أنها على شاكلة مدينة عربية ، فعلى سوقها الصغيرة التافهة بكل ما فيها من حياة وحركة فعلى انطبعا مفرطا للأوربي الذي وصل اليها لتوه قادما من الغرب دون أن يكون له المام بأحوال الشرق .

ان المرء يجد في الاسكندرية حشودا من المشاهدين التافهين والبائسين والمشتريين والاطفال المتشردين والكلاب والحمارين الطائشين ، والازياء الغريبة ومختلف انواع الأجناس ، ومع هذا فان هذا التباين الشديد الموجود بالاسكندرية يجد المرء أكثر منه بكثير في القاهرة . لذا فأننى سأبذل قصارى جهدى لوصف الحى العربى والسوق الذائعة الصيت لعاصمة الخلفاء القديمة . لكن الالمام بمعلومات كاملة عن الحياة الشرقية يستلزم دراسة خاصة .

لقد اتخذنا طريقنا ببطلع وصعوبة فى السوق ، وعند الطرف الآخر للسوق كانت الحافلة فى انتظارنا ، فاوصلتنا الى المحطة الجنوبية . لقد كانت الترتيبات والحافلات تذكرنا بانجلترا ذى كل شىء فيما عدا بعض الاهمال .

لقد سار بنا القطار على طول كشبان رملية كانت تفصل البحيرات عن البحر - الرملية Ramieh وهى المنبتج الصيفى لأثرياء مصر وموضع سياحتهم ، ويرى المرء هنا وهناك خاصة بالقرب من الاسكندرية كشبان من رمال الصحراء الصخرية ، وتناثرت على طول هذه الكشبان خيام الخمر والبدو ، وجمال واهنة وحمير ناهقة ، وأكوخ أقامها العرب ، وقبور كئيبة ، الا أن معظم هذه الكشبان قد تحول الى حدائق وأقيمت عليها الفيئات الباسمة .

لقد أثمرت أشجار الليمون والبرتقال الى جانب النخيل المسافات فتمتلك المكان كله يبدو كمتنزه . وعند الوصول

للمرلة Ramleh لم ننتظر أكثر من عشر دقائق حتى
وصل القطار التالى ليعود بنا للاسكندرية * لقد اظهرت هذه
الرحله القصيره للخريب كيف ان الجهد البشرى يمكن ان
يحول أكثر الاراضى قفرا الى فردوس * واتناء عودتنا
للاسكندرية كان القطار يسير بنا على طول ترعة المحمودية
Mahmudié canal ، الى الحديقة العامة الكبيرة المسماة
جنيينة النزهة Ginènet-en-Nasha * وكان المنظر على
طول ترعة المحمودية مسليا *

لقد كان الطريق بهيجا فقد رأينا عليه القوم فى
الاسكندرية فى حافلاتهم التى تجرها الخيول (حناطيرهم)
متجهين الى الحدائق الغناء حيث كانت تهب نسائم المساء
المنعشة ، كما رأينا الرجال والنساء من أكثر الطبقات فقرا ،
وهم يتوضأون بمياه ترعة المحمودية ويؤدون صلواتهم على
ضفتى الترعة وقد ولوا وجوههم صوب مكة (المكرمة) *

ويرى المرء بين البعض ممن يلبسون ثيابا راقية ،
شيئا من سقم الذوق فى طريقة اللباس ، ومع هذا فالرجوه
جميلة جمالا لا يمكن انكاره * ولا توجد اشارة ، بل أدنى
اشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة التى نعرفها فى
فيينا أو بين Pesth ، وغالب المومسات فى مصر - كما قيل
لى - آتين من النمسا * وحديقة « جنيينة النزهة » ذات بهاء
وفخامة ، ولها الطابع المدارى لحدائق مصر فرواتح البهار
تملأ الهواء ، والزهور المتفتحة اليانعة تسر عيون الأجانب ،
وراحت الفرق العسكرية تعزف أجمل الألحان ، وراح عديد
من الأوربيين يسرون فى الممرات الظليلة *

وقد زرنا أجمل بيوت الحى - انها فيلا الثرى اليونانى
أنتونياديس Antoniadis * لقد كانت للفيللا حديقة
يحيط بها سور متين ، ووجد سخاء المناخ الأفريقى بين الفن

والطبيعة فى ثوب واحد قشيب ، وكانت الفيلا ننسها جسييلة
منسقة ، وبذل بانيتها قصارى جهده ليكون جوها من الداخل
باردا ، وقد سمح مالكها لنا تفضلا منه بزيارتها *

وعدنا مرة أخرى للاسكندرية عبر طريق مختصوت
بالشجر على التربة ، ثم انحرفنا الى أرض بها عمود بمباى
Pompey الشهير وهو يقع خارج الاسكندرية *

وقد جذب انتباهى الطريق الذى سلكناه ، فقد وجدت
فيه ما يذكرنى بمناظر فى وطنى * والأحياء المجاورة لذل
المدن الشرقية وكذلك تلك الموجودة فى شرق أوربا ، لها
الطابع نفسه * فالمنازل والأحياء تصبح أصغر ، ويبدو
الاهمال وتظهر اكوام القمامة وينقلب كيان المباني * وتبدو
المقابر المنعزلة *

وهنا يبدو طابع المكان أكثر تحديدا ووضوحا ، حيث
المقابر الخربة وهذه المباني الصغيرة الدائرية ذوات الهمباب
وأشجار النخيل المتناثرة وقد قل عددها ، والجمال المحملة
فى حالة استرخاء ، والكلاب التى تكاد تكون متوحشة
والجواميس والحمير ، وقد انتشرت الأتربة الصفراء فى كل
مكان *

وفى وسط المساكن الكائنة فى طرف المدينة يوجد تل
داثرى من صنع الانسان ، لا بفعل الطبيعة ، وفوق هذا التل
ينتصب عمود بمباى الأثرى ، وهو قطعة حجرية واحدة يبلغ
ارتفاعها ثلاثة وستين قدما ، وفى منتهاه (طرفه العلوى)
صخر نارى أسوانى Syenite فوقه تاج كورنثى الطراز
Corinthian ، وكان هذا التاج فى الأزمنة القديمة يحمل
تمثال دقلديانوس Diocletian (١٧) *

وأتت اللحظة الأثيرة فصعدنا هذا التل الصخرى الى
جوار العمود) وتمعنا النظر ، فقد كانت الاسكندرية تمتد

أمامنا وقد لبست غلالة من ضوء ذهبي ، ويمتد البحر الى شمالها وتمتد الكشبان الرملية وبحيرة مريوط الى جنوبها الشرقى .

كانت الشمس تغرب وظهر قرصها واهنا بين الهواء المحبب بالأتربة والسخونة ، فبدت خجلى واهنة ، كالشمس فى أيام بلادنا الضبابية . وكانت السماء - من ناحية الغرب - مزدانة بالوان خصبة وثرية ، برتقالى واحمر وازرق وكل لون منها واضح وغير متداخل مع الالوان الأخرى ، وكلها جميعا - اى هذه الالوان - تسبح فى نور ذهبي ، أما من جهة الشرق فقد كانت السماء قد تدهشت بظلال زرقاء ، وظهرت مقدمات المساء ، وكان يمكن رؤية نجوم متألقة هنا وهناك فالشرق وحده - ومصر خاصة - مشهور بأضوائه وظلاله التى تترك فى النفس فعلا كفعل السحر .

وبينما كنا فى قمة السعادة فوق التل لرؤية المشهد أمامنا سمعنا صوت ضجة ورأينا زحاما عند قاعدة التل . ففى البداية أتت قطعان من الماعز بأذانها المائلة ، ثم صفوف من الجمال . لقد كانت - الماعز والجمال - فى الطريق الى زرائبها وبصحبتها رعاتها يصيحون فيها . وبعد ذلك رأينا جنازة حيث الناس يسيرون خلف تابوت خشبى بدون غطاء سوى قطعة قماش مطروحة عليه ، وفى مقدمة التابوت عمامة منحوتة من الخشب تنبئ أن الرجل فى طريقه لمشواه الأخير ، وقد أحاط بالتابوت بعض النسدايين المستأجرين (١٨) hired mourners ، راحوا يعصرون أيديهم اظهارة للألم كما راحوا يولولون بصوت عال . ووراء التابوت قوم يتلون الدعوات ويمشون ببطء . لقد كان منظرا غير عادى .

وقمنا بجولة ثم عدنا للاسكندرية من خلال باب محرم بك الذى كان يمثل تحصينا للمدينة فيما مضى ، أما الآن فليست له أية قيمة تحصينية .

وفى ساعات المساء تزداد الحركة فى الشوارع عنها فى ساعات النهار ، وتزداد الضوضاء ويعلو الصياح ولا يدم الصراخ . ان هذا يتناقض مع طبيعة الليل الذى يجب ان يتسم بالسكون وفى الليل تبقى المحلات مضاءة والمقاهى مفتوحة . وأسماء المحلات والمقاهى فى الحى الاوربى بالاسكندرية مكتوبة اما باليونانية أو الفرنسية أو الايطالية .

لقد وصلنا لسفينتنا ميرامار بينما قد أرخى الليل سدوله وأقبل البارون ساورما Baron Saurma القنصل الألمانى العام لتناول العشاء ، وقد لزمنا هذا الرجل وانضم لمجموعتنا وقد كان مفيدا لنا فى كثير من الحالات خاصة فيما يتعلق بأمور الصيد .

لقد غادرنا ميرامار فى بكور اليوم التاسع عشر وودعناها فلن نعود اليها بعد وقت قصير . لقد أوصلتنا بارجة احتفالية مصرية خاصة بنائب السلطان (الخديو) Viceroy الى البر ، وكانت هذه البارجة مزينة ومعدة على نمط شرقى ، فكل شئ فيها كان أحمر اللون ، فملابس البحارة لم تكن تقل حمرة عن أغطية المقاعد ، وكانت الأركان مغطاة بجوخ أحمر ، كما كانت المظلات التى نستظل بها حمراء . والبحارة الشرقيون يجدفون بهدوء - على النقيض من البحارة الأوربيين ، وان كنا لا ننكر أن التنسيق فى التجديف مصحوبا بأغنية هادئة غريبة قد ترك فينا تأثيرا يدعو للسرور .

لقد انطلقنا من الميناء للمحطة حيث كان هناك زحام شديد من النمساويين ومن المناطق التابعة لنا وعزفت الموسيقى « يحفظ الله الامبراطور » ولوح أبناء دلماشيا بقبعاتهم تحية لنا ، بينما كانوا يرتدون زيهم الوطنى المتسم بالثراء والجمال . وفى غضون دقائق قليلة كنا قد غادرنا المحطة . لقد وضع نائب السلطان (الخديو)

قطاره الخاص فى خدمتنا بما فى ذلك العربات الواسعة الخاصة به ، وكان فى القطار حافلة (عربية) مكشوفة فى الوسط * وثمة ممرات جيدة تمكن المرء من الانتقال من اقصى القطار الى ادناه *

لقد كان فى القطار بالاضافة لمجموعتنا (التى قدمت من النمسا) البارون شيفر Schaffer و أعضاء المنصليّة النمساوية والبارون ساورما Saurma ، وعبد القادر باشا مسئول الشؤون الخارجية المصرية ، ومصطفى باشا وبعض المصريين ومسؤولو ادارة السكك الحديدية وعلى رأسهم م * زممرمان Zimmerman وهو رجل فرنسى متحضر ، ويتلقى بقبول كبير وقد شملنا برقة غير محدودة *

لقد كان القطار سريعا ، لذا فقد كنا - بشق الأنفس - نستطيع أن نلقى نظرة على المناطق الجديدة بالرؤية ، بسبب سرعة القطار * لقد كان طريق القطار فى البداية على طول حافة تفصل بين بحيرات مريوط السبخة عن أيامنا ، ومياه أبى قير عن شمائلنا ، فالمساحات العريضة لهذه المسطحات المائية كانت مغطاة بطيور الماء من مختلف الأنواع ، وعلى الشواطئ الرملية كانت طيور البلشون (بفتح الباء واللام) السوداء (أو مالك الحزين) برقابها الممتدة *

وبعد برهة تركنا خلفنا مياه شمال الدلتا وسبخاتها (١٩) لننعم النظر بالأراضى الخصبة كثيفة الزروع ، وفى كل مكان ترى الحرث وحقول القمح الواسعة وغابات من أشجار القطن ، وقنوات عميقة وجسورا عالية وتناثرت النخيل هنا وهناك ، وكذلك البساتين الكثيفة dusty ، والقري ذات المباني الطينية وقد سمقت فى سمائها المآذن * هذه هى السمات العامة لمصر الدنيا (الدلتا) *

ويرى المرء حياة نشطة على الجسور — التى تستخدم أيضا حىرق — وتذلك فى الحمول فتمه فلاحون يحرقون ، واخرون — نصف عراة — مشغولون عند السواقى والنسوة بجلابيبهن الزرق يسرن الى جوار قوافل الجمال الفخورة (المعنزة بنفسها) وقد أمسكن بايديهن أطفالهن العراة * وتعبى الأسر البدوية الأراضى المزروعة وهم فى طريقهم من صحراء لآخرى سواء سائرين على أقدامهم أم يمتطون خيولا ، أما البدويات فتركبن جمالا * ان هؤلاء البدو ذوو أحجام ضئيلة ، ومع هذا فهم معتزون بأنفسهم ونزاعون للاستقلال *

لقد راينا العرب الخلفى والبرانس (العباءات) البيضاء والخيلون الجميلة والبنادق الطويلة ، والسيوف المعقوفة ، والعمائم ، وطواقى الفلاحين البسيطة والماعز طويلة الوبر والحلاب الشبيهة بالذئب وحمير الفلاحين السوداء المصمرة التى اعتراها الهزال ، جنبا الى جنب مع البغال والحمير البيض والسود التى تبدو عليها آثار النعمة والعلف الجيد والتى أعلها أصحابها الأثرياء للركوب ، ومواكب عربات الأثرياء والرجال ذوى العباءات المزركشة على صهوات الخيل والنساء يركبن الجمال فى هودج (جمع هودج) ليدرا عنهن نظرات المتطفلين ، وجماعات طيور النورس (زمج الماء) تتبع الفلاحين وهم يحرقون ، وطائر أبو طيط الرشيق * وبين أشجار الحقول على شاطئ النهر تهدل حمائم النخيل الحمراء (؟) وزمج الماء (٢٠) ذو المنقار الطويل ينقض صائدا السمك — انه أكثر الطيور المصرية أصالة (انه طائر مصرى أصيل) * ويرى المرء من القطار الذئب وهى تعدو فى الحقول ، والحدعات تحلق بأعداد كبيرة ، وكذلك الصقور ، وتحوم النسور فوق القرى *

انه عرض متباين ومفعم بالحياة ومشوق للنشاط البشرى والحياة الحيوانية ، وقد غلفها ضباب أزرق ملهى بالأتربة فى حر الظهيرة ، وكأن المسافر ينظر للحياة فى مصر القديمة تبعث من جديد *

لقد خلفنا وراءنا مدينة دمنهور وهى مدينة عربية صغيرة ، وعبرنا السهل وما زلنا نراغب ونتأمل ، وعبر القطار جسرا حديديا فوق النيل ، وللمرة الاولى نحى هذا المجرى المائى العظيم الذى يعد اقدم الأنهار التاريخية ، وعلى الضفة الشرقية (اليمنى) مررنا بمحطة كفر الزيات وهى مدينة صغيرة قريبة من دمنهور .

وبعد مسافة غير بعيدة وصلنا المدينة طنطا الشهيرة والقديمة . وبدأت المدينة على البعد كحومة قمامه تحيطها حدائق مزهرة ونخيل وأشجار جميل كثيفة ، اما عندما أصبحنا أكثر قربا فقد بدت عاجة بكل أوجه الحياة الشرقية حركه وصنبا ، وقد شيدت بيوتها من طين ، ويقال ان البيوت فيها يتساقط بعضها فوق بعضها الاخر فى قوضى مرعبة الا أنها جميعا قد شيدت على النمط العربى فى منظر يستحق التصوير .

وطنطا مشهورة بسوقها التى تعقد بشكل منتظم ، وحتى فى أيام هيرودوت فان هذه الاسواق كانت تعقد فى مصر السفلى وغالبا ما كان ذلك فى شرق الدلتا . وتبعث هذه الأسواق الحركة والنشاط فى القطر كله وغالبا ما كان يصاحبها انغماس فى اللهو على نحو مسف ، وفى الأيام الماضية كانت هذه المهرجانات تعقد على شرف الالهة بباستيس Bupastis ، أما الآن فانها تعقد على شرف سيد طنطا (السيد أحمد البدوى) الذى توفى هنا سنة ١٢٠٠ م واعتبره الناس قديسا (وليا) ، وسواء أكانت هذه المهرجانات بمناسبة عقد أسواق أم على شرف الالهة بباستيس أم احتفالا بمولد سيد طنطا أحمد البدوى ، فانها جميعا قد احتفظت بروح التسيب والفجور المصاحب لها (٢١) .

لقد توقف القطار لدقائق معدودة فى طنطا ، وكانت المناظر التى رأيناها بعد ذلك لا تختلف عما رأيناه آنفا ، وعند بنها العسل عبرنا فرع دمياط .

وئمة قلعة كبيرة تشمخ بين البساتين هنا ، وقد حققت شهرة بسبب الحدث المروع الذى جرى بها * ففى سنة ١٨٥٤ قتل هنا عباس باشا بن طوسون الذى تولى الحدم ومحمد على لازال على قيد الحياة ، على يد مملوكين " ويقال انه لم يكن يستحق هذه النهاية المأسوية (٢٢) *

لقد أصبحت مناظر الدلتا بالنسبة لنا رتيبة ، ولذا فقد كنا سعداء باقتراب لحظة مغادرتنا لها *

فهنا وهناك كنا نرى عبر المروج الأفق الأصفر للصحراء الليبية (الشرقية) فى اتجاه الجنوب الغربى ، والى اليمين أمامنا رأينا فى وهج النهار أهرام الجيزة رغم أن الجو كان برتقاليا ومغبرا * انها لحظة مهيبة ، فتهجم الأفكار من تلقاء نفسها فتغمر عقل الرحالة الذى يرى بأم عينيه للمرة الأولى هذه الدلالات الحضارية ذات العمر السحيق ، ويجد نفسه فى أرض الفراعنة التى تعد الركن الحجرى الصامد لحضارة العالم *

والى الجنوب الشرقى ترتفع جبال المقطم كمائدة صحراوية ، وعند سفحها جدران القلعة ومآذن مسجد محمد على ، وبين كل هذا تمتد منازل القاهرة كالأمواج المتلاطمة بين سديم حار * انها المدينة الرئيسية فى أفريقيا * ما هى الا لعظات وسنصل للمدينة العريقة ، مدينة الخليفة ، لقد حفر القطر من الجانبين بعدائق غناء * غابات من النخيل والجميز حول المنازل المنعزلة ، وعلى امتداد البصر ظهرت النخصرة الداكنة لمزارع حى شبرا Schubra Avenue ، وفى غضون دقائق كان القطر فى المحطة *

كان نائب السلطان (الخديو) Viceroy يحيط به رجال دولته واقفين على درجات السلم ، واستقبلونا بترحاب شديد *

واستقبل أعضاء الجالية النمساوية المجرية مواطنيهم
 بترحاب حماسى باهر ، وذهبننا للحافلات التى كانت فى
 انتظارنا * لقد كانت مزودة بأثاث ومعدات اوربية فى
 الغاية من الجمال * وعزفت الموسيقى السلام الوطنى على
 شرفنا * لقد عرفنا آن الحياة فى القاهرة ساحرة فاتنة من
 مجرد النظرة الاولى * لقد انطلقنا فى شارع قصير الى جسر
 يعمبر قناة (ترعة) فى شارع شبرا ذى النخضة والظلال *
 وتتابع الصور ، صورة فى اثر صورة وكأنا فى حلم *
 زحام بشرى ، وجمال محملة ، وحمير صغيرة وشرقيون فى
 ملابس زاهية ملونة ، ومحلات فتحت جوانب من أبوابها
 ومقام يجلس زبائنهم أمامها ، وأطفال يتشقلبون فوق التراب
 وهم يصيحون ويتدافعون بشدة ، ولم يتنح واحد منهم عن
 الطريق ، وفلاحات أصابهن الرعب يحملن جرار الماء فوق
 رؤوسهن ، هربن صارخات بمجرد اقتراب الحافلات بسرعة *
 وقام الرجال المرافقون بتوسيع الطريق لحافلاتنا
 بازاحة من فى الطريق ، مستخدمين عصيهم * وعن يسار
 الطريق وكذلك عن اليمين لاحظت مساكن جميلة تحيط بها
 حدائق فاتنة * وفى غضون دقائق قليلة درنا من خلال بوابة
 معرشة حيث كانت توجد قلعة قصر النزهة
 Kasr-en-Nusha بين فيض من الأشجار والزروع الكثيفة ،
 وحيثنا فرقة مشاة بالنفخ فى الأبواق *

لقد كان قصر النزهة هو محل اقامتنا الذى تفضل بنا
 عليه بلطف كبير منه نائب السلطان (الخديو) عبارة عن
 قلعة تتكون من مبنيين مربعين ، يربطهما ممر ذو نوافذ
 ضخمة زجاجية فوق بوابة المدخل * ان كل شئ داخل المبنى
 وخارجه أوربى ولا اختلاف الا فى الزينات والمعلقات
 البهيجة والحمامات الشرقية وكثير من التفاصيل الصغيرة التى
 لا تحصى التى تذكر المرء فى كل ركن أنه فى الشرق *

لقد اتخذنا لنا مجلسا بسرعة ورحنا نمتح عبق الحياة الشرقية ببهجة . لقد كان ترتيب المكان والشرفات الجداية والعطور المنبعثة من زهور الحديقة والهواء المنعش يذكرنا بالحكايات الخيالية الشرقية . وبعد ان تناولنا افطارا سريعا ذهب بعضنا للصيد مع البارون ساورما .

لقد عبرنا القناة (الترعة) مرة أخرى وجلنا خلال الجى الاوربى بشوارعه العريضة ومنازله الجميله وبساتين انريائه " وراينا على البعد مدخل الجى العربى وكان مسليا لنا ان نرى الفوضى ضاربة أطنايها فى الشوارع ، حيث يرى المرء كل شئ : الحافلات الأوربية والحناطير الباتسة وحمير الركوب وحمير التحميل والبغال والجمال ، والاغنياء والفقراء والمتسولون والشرقيون المسلمون الأتلاء وأنصاف الأوربيين من أهل الشرق الأدنى ، وبالإضافة لكل هذا يرى المرء جمعا من الغربيين كسياح وما الى ذلك . ولما عبرنا قصر النيل عبرنا جسرا وجدنا الممرات الظليلة بين الحدائق المواجهة للمدينة (القاهرة) ، وبالقرب من قلعة (قصر) طوسون باشا المحاط بالقنوات المائية والمروج توجد مزارع ممتدة لقصب السكر ، واقترحنا أن نقوم بالصيد فى احدى هذه المزارع وكان الأمير تاكسيس Taxis وأخو البارون ساورما فى انتظارنا فى المكان ، وكانت البنادق معدة والكلاب على أهبة الاستعداد .

وظللنا لفترة طويلة ولم تشم الكلاب الألمانية (من نوع داشهند Dashshunds) ما يدل على وجود ما يمكن صيده ثم سمعنا عواء عاليا بالقرب من حافة الحقل ، ولسوء الحظ فان الذئب خرج من مخبئه الى بقعة لا يمكن أن تطوله فيها البنادق لذا ، فقد عبرنا القناة (الترعة) العريضة الى مزرعة أخرى . وأطلقنا الكلاب مرة أخرى لكننا اضطررنا للتخلي عن رياضتنا بينما كانت الكلاب قد راحت تشم ريح

الطرائد بالفعل ، ذلك أن الفلاحين كانوا قد بدءوا فى قطع القصب فى أحد جانبي الحقل •

لقد كان عدد كبير من الفلاحين البؤساء يلبسون البسة متواضعة - رغم أن لبعضهم منظرا يوحى بالقوة - يعملون تحت اشراف خولى overscor يلبس عباءة طويلة ويحمل فى يده كرباجا من جلد وحيد القرن ، وقد تقدم منى هذا الخولى بزهو وتحدث طويلا وهو يومئى كثيرا أثناء الكلام ، وقد فهمت بعد لاي أنه يرغب منا مغادرة الأرض • ولما رأيت أنه يرفع صوته أكثر من اللازم ويحرك يده بعنف استدعيت عثمان الخادم الأسود للبارون ساورما ، ولما رأى هذا الشرقى الفاضل (الخولى) البزة المميزة لخادم القنصل انخفض صوته وتراجعت نبراته وانسحب سريعا خوفا من خطر يحقق به ، واختبأ داخل أعواد القصب الكثيفة (٢٣) •

وعدنا جميعا الى الحافلات • لقد كانت أول محاولتنا للصيد غير ناجحة ، وان كنا قد أطلقنا النار على بعض الطرائد الصغيرة •

وقد صحبنا البارون ساورما للقاهرة القديمة (٢٤) وهى أكثر مناطق القاهرة قدما وتقع ناحية الجنوب ، وكان علينا أن نعبر الجسر (الكوبرى) مرة أخرى ثم ندور بالقرب من النيل الى اليمين بالقرب من قصر نائب الحاكم Vice-Vegal لقد أدى بنا الطريق بسرعة الى أكثر المتاهات اثارة ، حيث الخرائب والبقايا والقاذورات والأطلال من مختلف الأنواع •

ويقطن أفقر السكان فى مساكن بائسة على وشك الانهيار • لقد انتهى الطريق الذى يمكن أن تقطعه الحافلة بين الأحجار وأكوام الرمال ، وكان علينا أن نغادر الحافلات بين نخلتين وأن نتابع مسيرنا على الأقدام •

ومن فوق كومة عالية كان أحد جوانبها يمثل بقايا جدار قديم لآخر منازل المدينة متعنا العين بالمنظر الرائع

وفى هذا الموضع تمرح الضبايع وتعوى أبناء أوى وتنبح
الخاب المتوحشه ليلا * لقد طوقت السحب قرص الشمس
بتدرج لوني متباين ، بينما هى تغرب فى الصحراء الليبيه
(الغربيه) البرتقالى لونها ، جعلت كل شىء يسبح فى بحر
من ذهب * والأهرامات ومآذن المدينة وفتحات حصونها
والقلعة ومنحدرات جبل المقطم الحادة * لقد كانت صورة
فى الغاية من الثراء تشكيلا ولونا لا شىء يمكن أن يتصوره
المصر أكثر جمالا من ذلك * انه منظر غاص بكل ما فى
الطبيعة وما فى العمارة من بهاء *

ويقع مسجد قصر العين Kasr el-Ain Mosque المخرب
والمهجور بين أكوام من الحطام ، وجدرانه القديمة
قد سكنتها أنواع من طيور الكروان ، وهو طائر يفضل
المستنقعات وينشط فى الظلام ، فاذا هبط الليل غادر أوكاره
يصيح صيحات حادة غير منقطعة ويتخذ سبيله للنيل ويسمع
المصريون عزفه طوال الليل فى سائر أنحاء مصر *

وقد تمرکزنا على طول المسجد ورجنا نراقب هذا
الطائر الغريب ، فكلما أغمم الليل كانت مجموعات منه تغادر
أوكارها * انها طيور سريعة وحذرة للغاية حتى ان هويوز
Hoyos كان هو الوحيد فينا الذى نجح فى اسقاط واحد
منها * ورجنا نتعثر فوق الخرائب والأطلال مسترشدين
بنباح الكلاب التى رجنا نحشها ، وبحملقات العرب البارعين
فى قص الأثر والذين خرجوا من جحورهم (بيوتهم) حتى
وصلنا الى حافلاتنا *

لقد كان طريق العودة شاقا وبطيئا فلم نستطع معرفة
وجهتنا فى الظلام خلال خرائب القاهرة القديمة وأطلالها
المعقدة ، وقد وصلنا بعد ذلك لبساتين وحدائق وأخيرا
وصلنا للمدينة (القاهرة) الحديثة بشوارعها المزدهمة
والمضاءة اضاءة جميلة *

ولما وصلنا مستقرنا وتناولنا عشاءنا أتى مواطنونا
 وهم يحملون المشاعل الى حدائق قصر النزهة * وكان عزيمتهم
 « يحفظ الله الامبراطور » وصيحاتهم وترحيبهم يدوي
 - بشكل غريب - خلال ليل أفريقيا الهادئة الرائع * وعند
 انتهاء هذا الترحيب الحار ذهب كل منا لينال قسطه من النوم
 والراحة *

وفى بكور اليوم العشرين اتخذنا سبيلنا الى اقدم الاحياء
 المربية، نحضر قداسا فى كنيسة قبطية * لقد وصلنا لا يواب
 مبنى فديم بعد ان مررنا بممر ضيق لا يمكن دخوله الا سيرا
 على الاقدام ، والمساكن المجاورة لهذه الكنيسة يسكنها
 مسيحيون وبخاصة القبط، ويمرور الوقت كثر عدد المسيحيين
 القاطنين حول الكنيسة التى يسمونها « بيت المسيحيين
 House of Christians * وكان فى انتظارنا بعض الاكليروس
 (رجال الدين) بملامحهم الداكنة ولحاهم الطويلة وسحنهم
 التى تشبه بشكل واضح سحن اليهود وعباءاتهم السوداء
 ذات الثنيات ، وهم مختلفون جدا عن كل أكليروس الملل
 الأخرى ، وكان أسقفهم فى مقدمتهم *

والمقيدة القبطية - كأي شيء آخر فى الشرق - بقيت
 دون تغيير فى الأعراف والعادات والطقوس والملابس
 الكهنوتية * فهم يرتلون القداس كما كان يرتله المسيحيون
 الأوائل الذين أدخلوا المسيحية من آسيا الى أفريقيا ويؤدون
 الطقوس ويبشرون بالطريقة نفسها التى كان يتبعها
 أسلافهم * لكن طقوسهم وشعائهم لا تتفق أبدا مع طقوسنا
 وشعائنا فى الغرب وانما احتفظوا بها (الطقوس والشعائر)
 كما كانت * ونحن نرى فى القبط المصريين صورة عقائدية
 للمسيحية فى أيامها الأولى * ان هؤلاء المصريين القبط هم
 ممثلو عقيدتنا فى شمال شرق أفريقيا وان كان أثرهم قد
 امتد بعيدا داخل القارة المظلمة *

ومن الناحية العرقية فإن قببط مصر ينتمون للعراق
نفسه الذى ينتمى اليه المصريون الآخرون (٢٥) ورغم
انتصار الاسلام وكثرة اتباعه ورغم قلة عدد المسيحيين
الاقباط بالمقارنة بالمسلمين ، الا أنهم كانوا قادرين على
الاحتفاظ بعقيدتهم وتراثهم حتى اليوم .

وقد رأينا بين الذهبية والقسس وغللمان الخوروس (٢٦)
(بضم الخاء والراء) (★) الوجوه البنية الداكنة وجوه
الافارقة النخلص . لقد كان هناك مصلون كثيرون خاصة من
القبط - رغم وجود مسيحيين آخرين يتبعون طقوسا كنيسة
أخرى - فى الكنيسة البسيطة الفقيرة . وترتدى نسوة الأقباط
الملابس الشرقية القديمة مثل المسيحيات فى بلاد الشرق ،
وقد رأينا نسوة كثرات بعد ذلك يرتدين الملابس ذاتها عند
زيارتنا للأماكن المسيحية المقدسة ، والنسوة القبطيات محجبات
بحجاب أبيض مثلهن فى ذلك مثل المسلمات . وبعد تلاوة
القداس استأذنا فى الانصراف من ممثلى هذه الهيئة الدينية
التي تعد أكثر الهيئات الدينية طرافة (بالنسبة لنا) واتخذنا
سبيلنا للتجول فى الأحياء العربية ومعرفة ما بها .
وقد قدمت لنا الأحياء الشرقية فى القاهرة صورة
خصبة من حيث اللون والتأثير جذبت اهتمامنا ، ولا يستطيع
غير الشرق أن يقدم لنا كل ذلك . دعونى الآن أشير الى بعض
المسائل التى جذبت اهتمامى ، وان كانت أمور الشرق تحتاج
لمساحة أكبر ودراسة أدق وجهد خاص لتسجيل خصائصها
بدقة وتفصيل .

لقد مررنا بين محلات وأسواق ومقاه حيث الجلبة
المتولدة عن حياة العرب - لنصل الى أول مقاصدنا وهو
المسجد القديم (٢٧) ذى الطابع التاريخي .

(★) الغلمان الذين يرتلون فى جوقة الكنيسة - (المترجم) .

لقد كانت الطرقات الضيقة مسقوفة فى كثير من المواضع بالحصر أو السجّاد لحجب الشمس ، وكانت المنازل مبنيّة بالطين وبها نوافذ ناتئة مدورة (مشربيات فوسية bow window) (٢٨) (*) جميلة وأخرى مشبكة خاصه بخرطوم ، وكل حليها (٢٩) ورخامها على النمط العربى * انه مزيج مدهش يحلو للمرء النظر اليه * لا شئ يتسم بالتناسق (السيمترية) ومع هذا فكل شئ يستحق التأمل بل ويستحق أن يسجله فنان بريشته فحتى الخرائب تعطى للصورة تأثيرا ينم عن خصائص الأصالة الشرقية *

لقد دخلنا ساحة the Court مسجد الحسين وهو مسجد كبير وجميل ، بنى احياء لذكرى الحسن والحسين أولاد (الامام) على زوج ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد استشهد الحسين فى معركة كربلاء سنة ٦٨٠ للميلاد ، وتم الاحتفال برأسه فى هذا المسجد ويعقد احتفال كبير كل سنة احياء لذكراه طول أربعة عشر يوما فى شهر ربيع الثانى ، وهو الشهر الرابع فى السنة الهجرية (٣٠) *

وقد خلعنا نعالنا وصحبنا درويش لطيف الى داخل المبنى ، وكان مبنى المسجد من الداخل حسن العمارة ثرى الزينة *

لقد كان يجلس فى حلقة عدد من الناس تدل أثوابهم الشرقية على الثراء ، على سجاجيد فاخرة وراحوا يقرءون بصوت خفيض تفسير القرآن (الكريم) من كتب قديمة ، وفى الوقت نفسه يقوم شيخ عالم بشرح لبعض الفقرات المهمة وهو جالس وسط حلقة المؤمنين * وراح آخرون يركعون ويسجدون وهم يولون وجوههم صوب مكة (المكرمة) *

وفى هذا المسجد كما فى المساجد الأخرى يتم تزيين المحراب بالمخمل الأخضر وهو يشير الى اتجاه الكعبة أكثر.

(*) المقصود به مسجد الحسين كما سيتضح - (المترجم) *

الآماكن - على ظهر الأرض - قداسة عند المسلمين • وتتدلى ثريات ضخمة من القببة ، ولا تقل التصميمات الشرقية الأصيلة داخل المسجد ، فى جذبها لانتباه الغرباء ، عن سلوك المؤمنين المترددين على المسجد •

وفى ساحة مجاورة للمسجد توجد ميضأة جميلة يرتادها المسلمون للوضوء • ان نظرة لهذا الحوض بحوافه من الحجارة المصقولة تعطينا انطباعا بالنظافة الفائقة • وبمزيد من البحث يتأكد الانسان أن القرآن الكريم فرض على المسلمين النظافة فقبل أن يدخل المسلم أكثر المواضع طهارة فى المسجد عليه أن يتوضأ • والمسلم يبدأ وضوءه وهو جالس ويتمتع ببعض الأدعية أثناء ذلك • ويمنعنى الأدب واللياقة من الاغراق فى الوصف أكثر من ذلك • وبعد اتمام الوضوء يتوجه المسلم الى بيت الله • ولقد لاحظت مرات عديدة أن عددا من الأشخاص يذهبون للميضأة فى وقت واحد ، مع أن هذا الحوض الصغير (الميضأة) به ماء غير متحرك فليس له مسرب ، (بفتح الراء) يدخل الماء منه وليس له مخرج ، فالماء فيه غير جار ، وفى كل ممرات المسجد وأروقته تجد زرافات من الناس يدخلون ويخرجون ولعظمتهم منظر لافت للنظر بعباءاتهم الطويلة ، ويناشدك المتسولون المصابون بالعرج أو الشلل بمنظرهم المرعب أن تدفع لهم الصدقات • وبينما كنا نغادر المسجد وجدنا رجلا كبير السن ذا لحة بيضاء ، يرتدى لباسا شرقية فخمة ويعتم بعمامة خضراء اشارة الى أنه شريف (من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم) ، وجدناه يترجل من فوق حصانه القوى ذى السرج الفاخر وسلم رسنه (بفتح الراء) للخادم الذى يتبعه ، ثم دخل بيت الله بوقار •

لقد كان هذا الشرقى المميز صورة حية جعلتنى دوماً أتخيل الحكماء فى الخرافات الشرقية الرائعة ذات المغزى •

واتخذنا سبيلنا بعد ذلك للجامع الأزهر الشهير ويرجع تاريخه الى تاريخ القاهرة ذاتها ، وقد بدأ بنيانه جوهر قائد جيوش الخليفة المعز * ويتطلب وصف هذا المبنى (المسجد) العتيق أن نرجع لتاريخ القاهرة *

فعندما استولى عمرو بن العاص قائد جيوش الخليفة عمر على حصن بابليون الذى يقع فى القاهرة القديمة الان (حى مصر القديمة) (٣١) وبدا يتخذ طريقه للاسكندرية بنت حمامة - فيما تقول الحكاية - عشاها عند الخيمة التى كان عمرو يقيم فيها أثناء الحصار وبدأت - أى الحمامة - تضع بيضها ، فامر القائد عمرو بعدم هدم الخيمة حتى لا تنزعج الحمامة * والكلمة العربية الدالة على الخيمة تعنى المسطاط *fostâl* (٣٢) *

وعاد عمرو الى خيمته هذه بعد أن استولى على الاسكندرية فوجد حولها مدينة تحمل اسم الفسطاط فبنى عمرو بنفسه هذا المسجد فسمى بعد ذلك جامع عمرو ، وعندما استقر العرب فى عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فى وادى النيل أصبحت الفسطاط هى حاضرة (عاصمة) مصر التى تقيم فيها الحكومة ، وعندما زار الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) بن هارون الرشيد مصر كان بالأزهر فعلا مدرسة لتلقى العلم ، وزاد ازدهار الفسطاط تحت الحاكم أحمد بن طولون الذى أعلن نفسه سلطانا على مصر (٣٣) ، وجعل الحكم فيها لورثته * وفى غضون حوالى مائة عام فقدت الفسطاط وضعها كعاصمة فعندما استولى جوهر قائد جيوش المعز الذى أعلن نفسه خليفة فى المغرب (تونس) على الفسطاط باسم سيده المعز ، قام بتأسيس عاصمة جديدة غير بعيد عن الفسطاط ، ولما قدم المعز لمصر استقر فى هذه العاصمة الجديدة وأسماها مصر القاهرة *Masr el-Kahira* وهكذا أصبحت القاهرة عاصمة لامبراطورية الخلفاء الفاطميين ، وسرعان ما نمت وتطورت تطورا سريعا *

والمعز هو ابن العزيز بالله وخليفته هو الذى أسس
جامعة الأزهر the University el-Azhar ، وقد امتدت
المدينة الى باب النصر وباب الفتوح (وهما البوابتان الأثريتان
اللتان سنتحدث عنهما فى ثنايا هذا الفصل) فى عهد خليفته
الحاكم * ولم يبذل صلاح الدين الأيوبي الذى بنى القلعة
واحاط القاهرة بسور جهودا كبيرة كالتى بذلها الفاطميون
لتطوير المدينة * وقد زين كثير من السلاطين المماليك
القاهرة بمبان جميلة خاصة قلاوون والأشرف خليل
وحسن (١٢٤) وبرقوق وقايد بك والغورى ، ورغم هذا
فقد كان سكان القاهرة - وهذا حقيقى - يعانون من استبداد
المماليك وجشعهم وسلبهم اياهم بشكل لا يحده حد *
وفى سنة ١٥١٧ وضع السلطان سليم الأول العثماني نهاية
لتطور القاهرة ونموها : فبعد انتصاره فى معركة عين شمس
استولى على القاهرة عنوة ، وشنق طومان باى آخر سلاطين
المماليك على باب زويلة فى ١٥ أبريل ١٥١٧ ، واختفت
القاهرة من صفحات التاريخ ولم تدخله مرة أخرى الا أثناء
حملة نابليون بونابرت على مصر *

لقد كانت كل هذه الحوادث التاريخية منذ أيام الاسلام
حاضرة فى فكرنا ونحن ندخل الجامع الأزهر الذى تحول الى
جامعة (مدرسة) فى عهد الخليفة العزيز بالله (٩٧٥ -
٩٩٦ م) ولازال الجامع الأزهر هو أكثر الجامعات
شهرة فى الشرق ، وهو بمثابة معمل لتفريخ التعصب
الاسلامى (★) and Likewise the breeding place of
Mohammadan fanaticism.

(★) هذا يبين بوضوح أهمية الأزهر الشريف فى الحفاظ على روح مصر ، ويلاحظ
المترجم تعامل معظم الرحالة الأجانب ضد الأزهر الشريف وتفضيلهم الاسلام اللاعقلاني
-و غير العلى أو اسلام الدراويش * راجع مقدمة المترجم *

ومبنى المسجد واسع جدا وصفوف الاعمدة فيه يتبع بعضها بعضها الآخر ، والأروقة متتالية ، وقد أمتعت نفسى بملاحظة أساليب الحلاقين الشرقيين العريقين الى جانب بوابة الجامع الرئيسية * لقد جلس هؤلاء الحلاقون متربعين على الأرض وامسكوا برءوس ضحاياهم (زبائنهم) بين ركبهم وواصلوا تفريشها بالصابون اللاذع وراحوا يحكون بأمواسهم الزبائن حتى غدت ناعمة كالزجاج * فالمسلم الحقيقي يجب ألا يكون فى رأسه شعر (٣٥) ، فلا أحد من المسلمين يحتفظ بشعر لرأسه سوى أفقر الفلاحين أو البدو غير المتحضرين * وفى المدن تعتبر الرأس الصلعاء دالة من دلالات الجمال *

ويقوم الحلاقون بحركات رشيقة أثناء تزيين زبائنهم وقص شعورهم وغسل رءوسهم وتعطيرهم بعطر زيت الورد وغيره من الدهانات العطرية مما يروج لنشاطهم (يمثل دعامة لعملهم) *

ثم مررنا بمسجد آخر صغير تابع للجامع الأزهر فى الساحة الواسعة ، وبه أحواض (مياضة) ، والممرات المحيطة به مقسمة بعوازل خشبية ، ويوجد فى جدرانها شبابيك مغطاة بخشب مشغول Lattices يحفظون فيها المخطوطات ، وفى الجانب الشرقى للساحة يوجد الرواق الواسع للمسجد وتراه مزيناً بثلاثمائة وثمانين عموداً من الرخام العادى والرخام السماقى والجرانيت وقد تم تزيينها بقطع أثرية تم حشدها جميعاً بدون مراعاة كبيرة للتناسق * وثمة أربعة أروقة للصلاة كل رواق منها لواحد من المذاهب الإسلامية المعترف بها : المذهب الشافعى ، والمذهب المالكى ، والمذهب الحنفى والمذهب الحنبلى ، وهذه الأروقة يفضى بعضها الى بعضها الآخر عند المؤخرة * وتتدلى من السقف مصابيح ملونة لا حصر لها وتوجد - حجرة مزينة جانبية يوجد بها مقام (قبر) الشيخ (الولي) عبد الرحمن كخيا Kichya .

وعلى أية حال فإن أكثر المشاهد جدارة بالملاحظة هو الطلاب البالغ عددهم عشرة آلاف ، والقادمون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، والذين يزدحمون في كل موضع في المسجد ، ليس في الأروقة فحسب وإنما في الممرات والصحن وكل مكان في هذا المبنى الضخم .

انك ترى هنا كل أجناس البشر من الزنوج السود الى النتر كس Cherkesse الصفير الشاحبين * كل الاجناس ممثلة هنا * ان التنوع الشديد في الألوان والأزياء يبهج عين الرائي بل ويرى المرء البدو الواعين بعباءاتهم البيضاء يجلسون بين الطلاب كطلاب *

ويجلس المعلمون (المشايخ) على مقاعد مرتفعة في سقائف صغيرة مصنوعة من جريد مشبك ومضفر * ان منظرهم مضحك للغاية ، فمعظمهم طاعنون في السن وغالبهم من أصحاب العاهات وقد لبسوا الملابس الشرقية ووضعوا العمام على رؤوسهم والنظارات متدلّية على أنوفهم * وهم يصرخون بصوت عال أثناء القاء محاضراتهم على سامعيهم ويومئون ويشيرون اشارات لم أر أسخف منها * وليس أمام هؤلاء الأساتذة (المشايخ) الا نسخ قديمة متربة من القرآن (الكريم) (★) مصدر المعرفة الشرقية التقليدية ، ويستعينون بعضا طويلا من الغاب (البوص) لحفظ النظام بين طلبتهم ودفعهم للانتباه ، ويتحلق حول كل مدرس (شيخ) شباب فاترون لا يبدو عليهم الاهتمام وقد تربعوا أو جلسوا القرفصاء أو اضطجعوا فوق التراب * وبعضهم يصغى وآخرون يكررون بصوت عال خلف مدرّسهم (شيخهم) * ويمكنك أن تتصور مدى الازعاج في هذه المؤسسة التي تسمي جامعة أو مدرسة عليا * انه مشهد مريب حقا بالنسبة لأي أوربي ، فمن الصعب علينا نحن الأوروبيين أن نتصور

(★) النص : Old dusty Koran books, the Pros and Cons of Eastern love.

ان الأمور تجرى على هذا النحو فى جامعة القاهرة (المقصود
الأزهر) ذات الشهرة المريضة فى العالم كله .

وبعد ان مكثنا قليلا غادرنا الغرف الحارة التى كانت
تنبعث منها رائحة مرعبة ، وتحوم فيها جيوش من الديباب
تحث الغريب على التراجع والعودة من حيث اتى .

وكان علينا بعد ذلك ان نمر بثلاثة مساجد كانت تتميز
بالوانها الزاهية ومآذنها الشامخة : جامع السلطان قلاوون
الذى يرجع الى عام ١٢٨٧م ، وجامع محمد الناصر الذى
يرجع للقرن الثالث عشر الميلادى ، وجامع برقوق الذى
يرجع للقرن الرابع عشر الميلادى ، وفيما عدا القيمة
التاريخية لهذه المساجد فلم يكن بها كثير مما يثيرنا .

أما بوابة النصر ، فقد جذبت انتباهنا أكثر مما جذبته
هذه المساجد ، فقد كان — على جانبيها — برجان مربعان ،
وذكرتنا أحجارها الداكنة الوقور بتاريخ العسرب فى
العصور الوسطى .

ولما عبرنا هذه البوابة تتبعنا طريقا قادنا الى ما وراء
مقبرة قديمة للمسلمين فوق أكوام من الأحجار والبقايا ،
على طول سور القاهرة الداكن حتى باب الفتوح الشهير .
وكلتا البوابتين أنفتحتى الذكر (باب النصر وباب الفتوح) ،
قد تم انشاؤهما فى عهد المستنصر الخليفة الفاطمى . لقد
عدنا الآن الى جانب أكثر حيوية فى الحى العربى ، لنتفحص
بعناية كاملة النشاطات المتعددة داخل السوق .

ولا يستطيع أن يصف أسواق القاهرة وصفا مفعما
بالحياة زائرا بالألوان الا كاتب محترف عرك الرحلات وجاب
الآقطار ، فوصف هذه الأسواق ليس مهمة سهلة ، لذلك فسوف
أكتفى بالكتابة عن قليل من المشاهد المتميزة التى تقدم
صورا حية لها خصوصية متمردة .

فشارع الموسيقى يقطع المدينة العربية القديمة ، ويبدأ هذا الشارع من ميدان العتبة الخضراء ويستمر حتى مقابر الخلفاء . وهذا الشارع هو عصب (شريان) حياة القاهريين ذات الطابع الشرقى .

فهذا الشارع يقدم لنا صورة صادقة للعاصمة الشرقيه ، فهو ليس عريضا ، ومبانيه غير منتظمة كما انه غير مرسوف ، ورطب ، وتتجمع فيه الاوساخ من كل نوع ، وهو مسرح لمعارك بين مالا حصر له من الحدب الشرسه ، وقد سقف الشارع بالحصر ، ويعج بضوضاء تجلب الصمم ، وتنبعث منه روائح نتنة تثير القرف والاشمئزاز .

وفى مقدورك ان ترى هنا فى شارع الموسيقى كل الجماعات الشرقيه التى تحطرك على بال بمظاهرههم المختلفه والواتهم المتباينه : رجال ذوو عمائم وعباءات واسعه غير داخن لونها تسر الناظرين ، وعسكر ، وبدو ، ويهود فى ازياهم النوراتية (التى ورد ذكرها فى التوراة) واتراك ، واهل اسيا الصغرى ويونانيون وميديون ومن الشرق الأدنى وارمن ، أغنياء وفقراء ، وفلاحون فى ثياب زرق وفلاحات حملن أطفالهن على صدورهن ، ونسوة ثريات يركبن حميرا ويتبعهن خسيانهن eunuchs يحرسونهن ، وراكبو الجمال ، والبغال المحملة بالبضائع ، والنوبيون داكنو البشرة ، والزنوج الخلس ، والمواكب الدينية الاسلاميه Mohammedan Processions ، والدراويش المبروكون والتجار والمتسولون الذين بترت أعضاؤهم ، والسقاؤون وقد حملوا القرب الجلدية فوق ظهورهم - كل هؤلاء سيتحركون غدوا ورواحا فى قوضى مربكة .

والأصوات المزعجة تؤذى الأذن الأوربية وتكاد تصيبها بالصمم أو تجعل فيها وقرا . فالضوضاء تنبعث من الزحام وكأنها زئير ، أضف الى هذا أنين المتسولين المرير ، وصيحات السائقين ورنين النقود وصلصلتها وقمقة الكئوس والأكواب

عند اصطدام بعضها ببعضها الآخر ، وصياح الباعة الجائلين
وبائعي القهوة (القهوجية) مادحين بضاعتهم بمبالغة وتبجح ،
وجثير الجمال ونباح الكلاب والصيحات التحذيرية التي
يطلقها الحمارون ، وأصوات السياس وهم يجرون أمام
العربات التي تجرها الدواب *

إنها مناظر جديدة تصافح عيون الغرباء في كل منحني ،
وتظل هذه الحركة الدائبة من الصباح الباكر ، حتى وقت
مناخر من الليل على طول شارع الموسيقى *

وتتمتع الأسواق ذات اليمين وذات الشمال داخل أزقة
وحوار ضيقة وساحات - وهينة المنظر كله تمتلئ سوقا شرفية
أصيلة تعرض البضائع الشرقية في مبان صممت عمارتها
لتعطي طابعا وطنيا أصيلا ، والأهم من كل هذا من حيث
صنيع السوق بطابع شرقي هو سلوك المشتري والبائع *

وسوق الحمزاوي هي سوق التجار المسيحيين ، أما سوق
العطارة فتسمى سوق العطارين ، وثمة سوق يقال لها سوق
الفحاميين Fahhami وهي زاخرة بالبضائع التونسية
والجزائرية ، أما حي الجواهرية (الجواهرجية) ففي الحي
اليهودي ، وخلفه سوق الصاغة ، وأخيرا سوق النحاسين ،
وقد تمحصنا هذه الأسواق جميعا *

وقد اشترت بعض الحلوى العربية ودرعا قديما الى
حد ما ، وبعض المشغولات الذهبية والفضية * لقد كان
البائعون المعتمدون يجلسون في محلات مفتوحة متربعين
With Crossed legs (✱) وارتدوا ملابس فضفاضة وراحوا
يدخنون الشيبوك أو يشربون القهوة ، ويتسابعون
الغريب بنظرات متفحصة لمعرفة هدفه ، فإذا ما أدركوا أنه
جاهل أو ليس له معين ولا يدرك طرق الخداع الشرقية -

(✱) يمكن أن يكون المعنى « وقد وضعوا ساقا على ساق » ، لكننا فضلنا ما أوردناه
في المتن ، لعدم وجود إشارة الى مقاعد - (المترجم) *

راحوا يتحدثون بحرية بلغتهم ليفرضوا عليه أغلى البضائع ،
ويضيع الأوربي التعس إذا لم يدركه المترجم الماهر بمدد من
العون ، فقد يعود الأوربي لوطنه محملاً ببضائع قد تدون
مغشوشة ، وبها — بالتأكيد — بعض العيوب ، بعد أن يدون
قد خسر ماله كله . وفى السوق يؤكد العرب أنهم جنس
سامى حقاً كاخوانهم اليهود وأنت لا تستطيع أن تميز بينهما
— العرب واليهود — إلا بمشقة .

وأكثر أسواق القاهرة إثارة وتشويقاً هى سوق خان
الخليلى Chan-Chalil . فلهذه السوق حى خاص بها ، ويعود
تاريخها الى السلطان المملوكى الأشرف صلاح الدين خليل .

ففى هذه السوق تجد الحياة الشرقية مفعمة بالحركة
المختلفة والنشاط المتباين . أنك تجد أكثر البضائع أصالة
ومن كل الأنواع ، وكلها شرقية ، بالإضافة الى منتجات
زنجية ، خاصة من السودان .

وفى سوق السجاد ذهبت الى ساحة (حوش) منزل تاجر
ثرى ، وبسط هذا الرجل العجوز باعتزاز يفوق الوصف
سجاجيده الراقية الثمينة . انها سجاجيد تركية وعجمية
(فارسية) ثمينة جداً — خاصة العجمى منها .

وبعد أن قضينا ساعات كثيرة فى الأحياء العربية فى
المدينة عدنا ادراجنا الى الموسكى ، بعد أن مررنا بشوارع
مزدحمة وضيقة . وأول ما لاحظته تلك الحشرات التى
لا حصر لها . ملايين من الذباب الكبير الأسود تملأ الشوارع
وتحلق حول الشرقيين ، فلا يذبحها الواحد منهم بعيداً عن
وجهه بل يسمح لها بأن تحط على وجهه فتكاد تغطيه . وهذا
الذباب يحمل القاذورات والعدوى الى العيون وهذا يفسر
أن عدداً من الأشخاص مصابون بالعمى وآخرون مصابون
بأمراض عيون تجعل مناظرهم تدعو للقرف والاشمئزاز .
وبشكل عام فإن المرء يرى فى الشوارع العرج والمشلولين

وأنا صابن بعاهات وأمراض وتشوهات بعضها لا يخطر
على بال أوربي .

وفى الموسكى استأجرنا حميرا * وهى حيوانات هزيلة
مزودة بسروج (برادع - والجمع بردعة) ويسـتـخدمها
الألوف لقطع القاهرة من طرف الى آخر ، وهى بذلك تحل
محل العربات التى تجرها الخيول فى أوربا (الكابات Cabs) .

وسارت بنا الحمير بنخب سريع حيناً وبعدو حيناً آخر
ويحشها السمارون السائرون خلفها ، فقطعنا شارع الموسكى
كله وعبرنا الحى الأوربى وعبرنا ترعة الاسماعيلية الى حى
شبرا ثم عدنا لقصر النزهة .

وبعد ان مكثنا قليلا ذهبنا لنائب السلطان (النديو)
Viceroy ، لزيارته زيارة مبدئية وان كان ميعاد الزيارة
الرسمية لم يعن بعد * وكان قصره الذى يصرف فيه
أمور البلاد يقع فى الجانب الغربى لمدينة القاهرة الحديثة ،
وهو مبنى ضخم على النسق الأوربى تماما ، فليس به أى
طابع محلى خاص .

وقابلنا النديو بود شديد وفقا للمعادات الشرقية ،
وقدمت لنا القهوة الممتازة فى فناجين تركية صغيرة ودخنا
الشيبيوك .

وسرعان ما انتهت الزيارة ، فاتخذنا طريقنا عبر الحى
الأوربى ثم مرة أخرى عبر الأحياء العربية ، حتى وصلنا
لجامع السلطان حسن القريب من القلعة * انه مسجد ضخم
عتيق ، لكنه - للأسف - مهمل اهمالا جسيما ، مع أنه أجمل
الجوامع التى رأيتها فى القاهرة فهو مبنى على طراز عربى
صميم ، ومن المحزن أن أقول ان قبر السلطان الميضاة
والأروقة - كل ذلك مغرب .

وعلى أحجار الأرضية يرى المرء آثار دماء لازالت باقية
منذ أيام مذبحة الانكشارية الأولى سنة ١٣٥١ .

وعدنا لمصرنا سالكين افصر الطرق لتتناول افصارا
سريعا خفيفا ، لنبدأ من جديد رحلة الى الاهرامات بأربعة
خيول ، وحوذيين *

لقد كان الطريق الذى سلخناه يمر - أكثر من مرة -
خلال كل المدينة ذات الطابع الاوربى حيث للمبانى تصميم
أوربى الا اذها ذات زينات وزخارف شرقية ، فكانت جذابة
بفضل هذا المزج بين ما هو شرقى وما هو غربى " لقد
أبهجتنى البساتين الناضرة بأزهارها الفواحة وشجيراتنا
ونخيلها التى تداعب النسائم أغصانها وجريدها ، ورايت
وسط المدينة عددا من الطيور الجارحة : آلاف الحشرات تحلق
فى الجو أو تقف على الأسطح ، وصقور الجيف التى تنقض
فى الشوارع ، وسمعت أغاني الطيور وهديل الحمام وغمرت
نفسى فى النسائم الشافية لمصر المقدسة ، متذكرا شتاء أوربا
القارس الذى هربت منه ذات مرة *

وعند قصر النيل الفسيح عبرنا النهر المقدس وجزيرة
بولاق وتجاوزنا بعض الفيلات Villas الخاصة بنائب السلطان
(الخديو) وبعض الحدائق البهية ، وسرعان ما وصلنا الى
طريق مرتفع تحفه الأشجار ويمتد بشكل مستقيم بين
الأراضى الزراعية ويمر ببعض القرى العربية البائسة حتى
حافة الصحراء *

لقد سارت بنا المركبة مسافة بضع مئات من الخطوات
فى الرمال الصفراء للصحراء الليبية (الغربية) ، وتوقفت
عند قاعدة تكوينات عملاقة تطل علينا من عمق آلاف السنين
من تاريخ العالم * ان كل رحالة يحملق - للمرة الأولى - فى
هذه الآثار (الأهرامات) الباقية من أزمنة سحيقة لتفشاء
رهبة من نوع خاص ، أيمنه أن يلمس بيديه أحجارا ظلت

باقية منذ أيام ما قبل ابراهيم (الخليل) * انها لازالت
باقية بسبب جهد الانسان ومهارته *

ولئن وصفت أهرام الجيزة لكررت اذن عملا قدمه
غيرى أكثر من مرة ، فقبور الأسرات الحاكمة التى تعود
للعصور القديمة تغوص الى مستوى الريحى (؟؟) (★) ،
level of a Rigi * ويسىء السائح الغربى الى هذه الأحجار
الجليلة فهو لا يدرك كنه دلالاتها *

لقد رأينا أهرامات خوفو وخفرع ومتقرع * كما رأينا
(أبو الهول) وقد غطت الرمال نصف جسده ، وشرع بعض
العرب فى تسلق الهرم الثانى لطرد حيوانات ابن آوى الكامنة
بين صخوره ، ولسوء الحظ فاننا لم نكن نتخذ موقعا جيدا
لذا فان اثنين من هذه الحيوانات قد هربا دون أن يلحق بهما
أذى وانسلا الى الصحراء الشاسعة بين الوديان الجافة
والتلال * وقد أطلقنا بعض الطلقات من موقعنا عند سفح
الهرم على هذه الحيوانات وهى تهبط بسرعة قافزة برشاقة
غير معتادة بين الأحجار ، لكن أيا من طلقاتنا لم يصب هدفا ،
فقد كانت المسافة بعيدة جدا *

وقد أعطتني الأهرامات انطبعا - خاصة عندما يتسلقها
انسان أو حيوان - انها أقرب ما تكون جبال صناعية عظيمة
شيدها الانسان أكثر من كونها أثرا معماريا *

وغربت الشمس وسبحت المرئيات فى بحر من الضياء
البهية ، وتألفت أحجار الأهرام الرمادية كالذهب ، أما وادى
النيل ومساكن القاهرة والقلعة والمقطم من وراء ذلك كله
فقد صبغت بدرجات من اللون القرمزى * وكان علينا أن
نسرع بالعودة الى مقرنا فسلطنا الطريق الذى جئنا منه *

(★) لم نفهم المعنى المقصود ، فقدمناه كما هو - (المترجم) *

وفى حى شبرا وجدنا نشاطا صاخبا فثمة من يركبون خيولا عربية جميلة ، وثمة مركبات تسير فى صفوف رائعة غادية . انه منظر ينم عن الحيوية والنشاط والمرح لا يمدن رؤيته الا فى بلاد الجنوب . وذلك بعكس الحال فى بلاد الشمال حيث الدورسكيات (عربات ذات عجلتين او اربعة تشيع فى بلاد أوربا خاصة روسيا ووسط أوربا) (١٣٦) التى يرتعد سائقوها فى أمسيات شهر مايو . وثمة مركبات كبيرة وجميلة على نسق المركبات الأوربية، لكن كل خدمها والعاملين عليها يرتدون جميعا الطرابيش . ويركب المسلمون الاثرياء والباشاوات وأهل الشرق الأدنى واليونانيون الأغنياء مركباتهم لتنسم نسائم المساء الباردة ، وقد سعدنا غاية السعادة بركوب (الحناطير) التى يقودها (عربية) شرقيون . وكان يجلس خلفها طواشية (أغوات) سود بملامحهم البغيضة القاسية ، وقد ارتدوا أزياء نصف أوربية — وهم فى وضعهم هذا يسدون مسد الخدم أو جنود الحراسة .

وفى داخل هذه المركبات (الحناطير) توجد زوجات الموظفين الكبار وزوجات عدد من البشوات ، بل وحتى بعض الأميرات . وكلهن يرتدين الملابس البيض الشرقية وتبدو من خمرةن البيض عيونهن السوداء المتألقة ، وملامحهن الجميلة وحواجبهن المزججة على هيئة أنصاف الأقواس ورموشهن الطويلة . أما الفقراء فيركبون الحمير والمركبات البائسة (الدورسكيات) .

وعند وصولنا لمقرنا ارتدينا ملابسنا سريعا وذهبنا لقصر الخديو وتناولنا عشاء فاخرا كان قد دعى اليه النظار (الوزراء) وقناصل العموم Consuls-general ، وتم تقديمنا هناك لاختوة الخديو ، وكان القصر على النسق الأوربى أما الخدم فكانوا جميعا أوربيين فيما عدا أولئك الذين يقدمون القهوة والشايوك .

وبعد العشاء ذهبنا مع الخديو الى حدائق الازبكية
الواسعة التى تقع داخل المدينة حيث اقامت الجاييه النمساوية
المجرية مهرجانا ترحيبيا بنا * فعلقت المصابيح فى الاشجار
وجرت الالعاب النارية وابدى الراقصون والمعوض مهاراتهم
فى خيام معدة لهذا الغرض ، وصدحت الموسيقى العربية ،
ولعب الحواة بالافاعي واخلوا النيران واستعرضنا الرواة
(القصاص) والزنوج والنوبيين وشاهدنا مسرح العرائس *
وباختصار فقد كان معرضا لكل الفنانين من هذه الطيفه
التي يغص بها الشرق *

لقد تم فتح بوابات الحديقة - لسوء الحظ - بى وقت
ياؤر جدا تازدحمت ازدحاما شديدا فكان من المستحيل ان
نتجول فيها بحرية * لقد كنا نتعرض بشكل مستمر لاحضائك
الجموع بنا ، ولم نستطع الا بمساعدة بعض اهل دالماشيا
بشياهم الكاملة ، الذين شكلوا جدارا بشريا حولنا - ان
نصل الى البوابة ومن ثم لحافلاتنا التى تنتظرنا خارجها *
وسرعان ما وصلنا لمقر اقامتنا ، وبعد هذا اليوم الحافل كان
الخلود للراحة هو افضل تكريم لنا *

وفى صباح اليوم التالى سرنا خلال جانب كبير من
المدينة الأوربية (ذات الطابع الأوربى) فى طريقنا لمتحف
بولاق فى الطرف الجنوبى لجزيرة بولاق *

ويضم هذا المتحف احدى أثرى المجموعات من الآثار
المصرية وأكثرها شهرة ، وهو مبنى فسيح الأرجاء جيد
التنظيم يضم مالا يقدر بثمن من كنوز الآثار التى تعود
لقصر الفراعنة القديم ، ويتولى ادارته فرنسى خلف ماريت
باشا Mariette الأثرى الشهير الذى وافاه الأجل مؤخرا
ويشغل برجش باشا Brugsch عالم المصريات الشهير هو
الآخر منصبا فى هذا المتحف * وقد دلنا على أكثر قطع
المجموعات اثاره وأهمية * ووصف متحف بولاق

يتطلب استعدادا علميا فائقا، بالإضافة الى أن قطعه قد حاست موضع دراسته ووصف في كثير من الدراسات صدرت بالفعل . لقد تمحصنا كل شيء بعنايه في غرف المتحف وفي حديقته الصغيرة ، وجذبتنى كثيرا بعض الممياوات من عصور المسيحية الاولى فلم اكن اظن - قبل رؤيتها - أن مميوات من هذا النوع لازالت موجودة . لقد ذكرتني بتألقها ومظهرها ذى الزينات الثرية ووجوهها السوداء بالسيدات البيزنطيات Byzantine Madonnas (★) وبعد طول تجوال فى المتحف غادرناه الى مقر اقامتنا . وما كدنا نرتدى ملابسنا الرسمية (ملابس البلاط) حتى ظهر الباشا الذى يتولى أمور المجلس العسكرى Court Marshal تحت اشراف الخديو، ليرافقنا فى زيارتنا الرسمية (زيارتنا التشريفية) لسموه .

وركبنا مركبة فخمة مذهبة تجرها ستة خيول انجليزية ضخمة وجميلة ، وأحاط بمركبتنا الفرسان ، وتعلق بها من الخارج بعض الأشخاص ، وسارت المركبة فى رحلة طويلة الى قصر الخديو (نائب السلطان Viceroy) وكان الطابع العام للحافلة ذا طعم خاص مميز ، فكان على العربدة ذات التصميم الأوربى ما يشبه العبادة التى تطرح على الأذرع وعليها هلال ونجمة أما الحوذى والمتعلقون بالعربة من الخارج فكانوا يلبسون بذات غربية (أوربية) وان كانوا يضعون الطرابيش على رؤوسهم ، وتقدم السائيس الموكب بىزى شرقى كامل .

ووقف خلق كثير فى الشوارع وراحوا يحملقون فينا يحفزهم حب الاستطلاع . وفى الميدان المواجه للقصر كانت فرقة من المشاة فى لباس أزرق فاتح يعزفون النشيد الوطنى وتبع ذلك تهليل عربى لآظهار الاستحسان فشرعت جماعة اثر جماعة تجار (تصيح) وأفرادها يقدمون أسلحتهم . وانتظرنا الخديو بأبهته الكاملة كباشا تركى تحيط به

(★) ربما كان المقصود صور العذراء فى الحضارة البيزنطية - (المترجم) .

حاشيته ، واتخذ كل منا مجلسه على مقعد فى القاعة الكبرى ، واتخذ المجلس شكل دائرة ، وسرعان ما قدمت القهوة والشيبوكات المزخرفة زخرفات ثرية • وتقديم القهوة والشيبوك ليس مجرد ممارسة لبعث السرور لكنه أيضا يشير للاحترام والوقار ، على نحو ما يشير تدخين الغليون الطويل (الكاليوميت) ، وبعد انتهاء الزيارة عدنا لعقد النزهة فى حافلات ضخمة سارت فى موكب يتهادى •

وبعد عودتنا وصل الخديو سريعا ليرد لنا الزيارة • وعندما غادر القلعة قمت أنا والدوق الكبير باستقبال كل المقيمين النمساويين والمجريين وقناصل العموم وبعض من أراد رؤيتنا ، ومن بين هؤلاء رئيس أساقفة الاسكندرية وهو فرنسيسكاني من مواليد دلماشيا ، وكان منظره مريحا بسحنه النبيلة ولحيته الطويلة • يا للبائس لقد غرق بعد ذلك واستقر جثمانه فى المياه العميقة ! •

وبعد قضاء بضع ساعات فى أمور المراسم والتشريفات، سمح لنا ، وخلصنا ملابسنا الرسمية وارتدينا ملابس الصيد، لنستعد للصيد فى هليوبولس ، بعد تناولنا الطعام • وقد صحبنا فى رحلتنا هذه البارون ساورما ، وان سبقنا الى مواقع الصيد أخوه والأمير تاكسس •

وكان علينا أن نسلك بعض الشوارع الا أننا سرعان ما تجاوزنا أخيرا بعض المنازل المتداعية على حافة الصحراء وفى الأراضي القاحلة • وقد رأينا عن شمائلنا مسلخا كبيرا دل على اقترابنا منه تحليق كثير من النسور آكلة الجيف • وعن أيامنا تجلى لنا منظر الصحراء الجميل وخلفها سلسلة جبال المقطم المرتفعة • وكانت طواحين الهواء Wind-mills والقبور التى اعتراها الخراب هى آخر المباني فى منطقة الرمال •

والطريق محفوف بالارض الزراعية شيمه الزراعه
ولكنه دائما ابدا قريب من الصحراء * وقطعا الحدائق
الحضر للعباسيه ولعصر توفيق بصموف اشجارها الطويلة
وبساتين البرتقال بها ، وبعد حوالى نصف الساعه وصلنا
لسجرة مريم tree of Mary التى تنتصب بين شجيرات
وحدايق شيمه * وتوفنا لننظر الى شجرة الجميز Sycamore
الى اسنراحت تحتها العائلة المقدسة فيما تقول الروايه
(النص : فيما تقول الاسطورة Legend) * انها شجرة
عتيقة يلاحظ فى فروعها عقد كما ان حجم جذعها وسماكة
لحائها يسترعيان الانتباه * لقد كانت رؤيتنا لهذه الشجرة
أفضل مكافأة للمشاق التى تكبدناها أثناء الزيارة * لقد
ذهبت جهودنا عبثا لاقتناص أى حيوان بمساعدة كلابنا فى
مزرعة قصب سكر صغيرة ، وأخفقنا كذلك فى مزرعة نخيل
(اشجار الأريكا Areca) (٣٧) *

وكان ما تبقى من الطريق يمتد على طول مطبات عالية
ضيقة ، وكان السير فيه أمرا مرهقا للحافلات الثقيلة لدينا
— على أية حال — اقتربنا من هدفنا لكن ببطء * وكانت
الأراضى الزراعية تمتد على جانبي الطريق تتخللها القنوات
ويزيد من بهائها أشجار الجميز ، وأشجار النخيل ذوات
الحفيف * وثمة بعض القرى العربية الرمادية مشيدة
مساكنها من الطين ولا تجمعات سكنية غير ذلك ، وعلى جانبي
الطريق وطواله يرى المرء الفلاحين يعملون فى الحقول *

والجاموس يدير السواقى ، والجمال تحمل الأحمال
وطيور أبى قردان (مالك الحزين أو البلشون Leron)
تمشى خلف الفلاحين الممسكين بالمحاريث ، وسعدت أعيننا
برؤية طيور مختلفة ، ورأينا الى الجنوب الشرقى الصحراء
وجبالها العارية ويعد فترة بدت لنا مسلة هليوبولس الشهيرة
وقد أحاطت بها مروج خضر *

وهنا - فى هذه البقعة ذات الشهرة التاريخية ساسنيد
من كلمات صديقى برجش Brugsch باشا الوارده فى حساب
أرسله لى يتحدث فيه هذا العالم بالمصريات عن هليوپولس .
« عندما كان المسافر من منف Memphis فى العصور
القديمة يعبر النيل ويدخل ما يسمى بالطريق المقدس الذى
يؤدى فى الجانب الشرقى للنيل بعد بابليون (بالمغرب من
القاهرة القديمة) نحو الشمال ، فانه سرعان ما يرى على
البعد عددا من المسلات التى تشير الى أنه أصبح قريبا من
مدينة الشمس ذات الشهرة العريضة بسبب قدمها وتاريخها .
انها تقع على حافة الصحراء وتختلط رمالها البرتقالية بأتربة
الحقول الداكنة . وقد تم انشاؤها كحرم لاله الضوء (النور)
رع Ra الذى تشير اليه أقدم الكتابات على القبور الهرمية » .

« وتشير سجلات كل العصور اليه والى المدينة المجاورة
باسم أنو Annu أقدم الأسماء وأكثرها شيوعا . وهى
ذاتها أون On ، فى الكتاب المقدس ، التى قطنها رجل الدين
بوتيفيرا Potiphra الذى قدم فرعون هذه الأيام ابنته
اسنا Asnath ليتزوجها وزيره يوسف . وبالإضافة لاسم
المدينة الذى ذكرناه ، فان المدينة وكذلك المعبد حملتا اسم
(بى رع bi-Ra) وتعنى « مدينة رع اله الشمس » ومن
هذا الاسم أتى المسمى الاغريقى « هليوبولس » . ويعزى
التخطيط الأول وكذلك الموضع للمهاجرين العرب الذين
قدموا من الشرق الى الدلتا واستقروا فى موقع مدينة
هليوبولس . وهذا هو الاحتمال الأرجح » .

« وقد قام هؤلاء القادمون الجدد - عباد الشمس
والنجوم - بترسيخ شعائر دينهم فى هذه البقعة ، وقد أثرت
أفكارهم الرائدة فى الميثولوجيا المصرية وشكلت خطوط
عقيدة محددة ، كان يتم الافصح عنها فى مدارس الكهنة
باعتبارها السر الأساسى فى تعاليمهم ، حتى الحثيثة

من التاريخ المصرى عندما زار الفلاسفة الاغريق كأفلاطون ويودكسس Eudoxus المدينة * وقد نجح هؤلاء الفلاسفة الاغريق انفسو الذكر بمشقة فى حث كهنة هليوبولس العلماء على ان يشرحوا لهم بعض أهم العقائد ذات الأهمية الفلكية* « والأصل العربى للمدينة يبدو - دون عناء - خاصة فى عبادة طائر مكرس للشمس Was dedicated to the Sun وخصص له « حرم » فى معبد اله الضوء (النور) Light god وهذا الطائر العجيب كان يسمى العنقاء واسماه الاغريق فونكس Phoenix ، والسجلات الأثرية مليئة برحلاتها من اراضى البخور العربية الى هليوبولس عند اكتمال الدورة الفلكية العظمى » *

« وهذا الطائر مألوف فى الآثار المصرية ، لكن السجلات المقدسة قد جردت هذا الطائر تماما من كل ما يحيط به من غموض (نزعت عنه طبيعته الغامضة) فلم يجد المؤلفون الاغريق والرومان حرجا فى وصفه * ووفقا للمكتابات الهيروغليفية فان طائر العنقاء الذى يسمى باللغة المصرية القديمة بنو Benuu ينتمى الى جنس البلشون Ardea (★) الذى يتميز بريشه المتألق الذى يلمع كالذهب * واعتاد هذا الطائر أن يهاجر من الشرق الى مصر وقت فيضان النيل * ولم يربط الكهنة المصريون بين هذا الطائر والشمس فحسب بل ربطوه أيضا بنجمة الفجر التى تبشر بالشروق * ويمكننا أن نفترض دون أن نخدع أنفسنا أن مزارع أشجار البخور (ذات الأصل العربى) التى وردت فى النقوش تعتبر مرجعا دقيقا يشير الى احتراق العنقاء القديمة فى أعشاش من أخشاب البخور » *

« وتعد هليوبولس وكل المنطقة التى تعد حاضرة (عاصمة) لها احدى أقدم المواضع وأكثرها شهرة حتى فى عصور مصر القديمة » *

(★) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) *

« فهلويوبولس ، بالإضافة الى منف وطيبة ، تعد معلما من معالم الساريح » انها تمثل المرحلة الباهرة هي العصور التاريخية للحضارة المصرية ، تماما كما كانت منف هي المرحلة التالية لهذه الحضارة ، وكما كانت طيبة هي المرحلة الزاهرة التي منلت العظمة المصرية من القرن الثامن عشر الى القرن الثالث عشر قبل الحقبة المسيحية . وفي هليوبولس وجدنا المستوطنة الاولى للعرب الكوشيين kushite Arab في تجوالهم قادمين من الشرق . لقد امتلكوا بعد ذلك منطقة شرق الدلتا وأدخلوا عبادة الشمس ، واسسوا اول موطن ثابت لهم » .

« وخلال العصور منذ أيام أقدم الأسرات الحاكمة ازدانت هليوبولس ، بفضل ملوك مصر ، بالمعابد والتماثيل والمسلات التي لفتت كثرتها واحجامها أنظار الكتاب العرب حتى في العصور الوسطى . . أما البطالة — بتقافتهم الاغريقية — فقد تركوا مخلفات من سبقوهم لم يمسوها بسوء ، بل وعملوا كل ما في طاقتهم لحماية المعابد من كل ما يندسها ، وبدأ المستبدون الرومان في سرقة الأماكن المقدسة القديمة وتجريدها من آثارها ، فتم نقل مسلتين في عهد تيبيريوس Tiberus من هليوبولس الى الاسكندرية لتوضعا أمام الكاسيريوم Caesareum أو معبد القيصر . وتم نقل مسلات أخرى الى روما والقسطنطينية لتشير كشهود غامضة لعصور ما قبل التاريخ » .

« ولم تبق الا مسلة واحدة في موضعها القديم ، وهي تلك الباقية شامخة الآن وسط الأرض الزراعية بالقرب من قرية Mulariya (؟) ويبلغ ارتفاعها من تحت سطح التربة من ٢٠ الى ٢٧ مترا . انها آخر ما تبقى من مدينة الشمس التي كانت عامرة ، كما أنها أقدم المسلات المعروفة والكتابات التي تغطي أحد جوانبها هي نفسها الكتابات التي تغطي كل جانب من جوانبها الأخرى » .

« وتشير هذه الكتابات إلى الملك أوسرتاسن الأول
 Usertaser (الذى حكم في منتصف القرن الثالث قبل
 الميلاد) باعتباره الأمر بإنشائها ، كما تشير أن إقامة هذا
 النصب (بضم النون وتشديدها) الضخم المتناغم المصنوع
 من الحجر الناري الأسواني لتتزامن مع بداية فترة فلكية من
 ثلاثين عاما ، أو أحياء لذكرى حلولها . وكانت رأس هذه
 المسلة فيما مضى مغطاة برقائيق نحاسية لامعة سرقها العرب
 في العصور الوسطى . والبقعة التي تنتصب فيها المسلة
 تشير أيضا لموقع المدخل الرئيسي لأقدم حرم لاله الشمس .
 وثمة أسوار تشبه المتاريس لتحديد الحدود لا تزال بقاياها
 قائمة تدل في الوقت نفسه على الزمام الذي كانت تشغله
 مجموعة من المعابد . وقد نلاحظ ما هو أكثر مستدلين
 بالشواهد التي قدمتها برديات القرن الثالث عشر قبل ميلاد
 المسيح (عليه السلام) أن هليوبولس كانت موقعا جيد
 التحصين ، وأنها كانت تمثل آخر حصن جنوبي من سلسلة
 خط الحصون الطويل الذي يمتد مارا بيباستيس Bubastis
 (الآن تل بسطه Tell Bast) وتنيس Tanis (وهي زون)
 Zoan الواردة في الكتاب المقدس وتسمى الآن صان San
 حتى ديوبوليس Diospolis (الآن دمياط) الواقعة على
 البحر المتوسط ، تلك الحصون التي صممت لحماية حدود
 الدلتا ضد هجوم القبائل المتبربرة القادمة من الشرق » .

« والسبيل من القاهرة إلى هذه الآثار القديمة أصبح
 الآن محددًا بطريق مرتفع Causeway يمتد قرابة خمسة
 أميال (انجليزية) على طول حافة الصحراء ، وإن قطعه في
 أكثر من مكان وجود مزارع وأراضى بناء . فعندما تغادر
 باب الحديد في مدينة الخلفاء (القاهرة) ينفتح الطريق
 أمامك تحفه الأشجار مع الجانبين ، مخليا عينيك لتلقيا نظرة
 رحبة على الصحراء إلى سفح المقطم (يقال انه من حجر جيري

نميولييتى (Numulite Limestone) . وثمة جبل منعزل (لا يدخل ضمن السلسلة) هو الجبل الأحمر تميل حمرة للدكانة ، وهو من أحجار سيليكونية Silicious ، يقطعها الناس بكثرة ليجعلوها أحجار رخاء (جمع رحي ، بفتح الراء والحاء) أما فى الأزمنة القديمة فقد كانوا يجلبون منه الأحجار المتينة لصناعة التماثيل وغيرها من المباني التذكارية * . الخ ، فأحجار التمثالين الهائلين الشهيرين الخاصين بممنون Memnon فى الجانب الغربى لسهل طيبة قد جلبت من الجبل الأحمر » -

« وجهة اليمين يرى المرء قبور الخلفاء ومساجدهم تتوالى تباعا بغير انقطاع ، ومحطة ضخ شركة المياه القاهرية Cairene Water Company ، ومقابر حديثة للمسلمين والمقر الصحراوي لآخر نائب للسلطان Viceroy (★) عباس باشا ، وهو مخرب بكل ما فى الكلمة من معنى ، وثكنات للخيالة والمشاة ، وأخيرا خزانات ماء وبعض المباني الصغيرة التى لا أهمية لها * أما الى اليسار فتوجد مزارع حى شبرا الخصب ، أما الأكثر قربا من الطريق فهو قصر أم الخديو اسماعيل باشا ، ومساحات مخصصة للملاحظين الفلكيين والمختصين بالأرصاد الجوية *

وثمة طريق ظليل تعطره الأزهار وتزينه بساتين الأعناب وحدائق الفاكهة على أحد الجانبين يؤدى - غير بعيد - الى فيلا الخديو الحالى بالقرب القريب من قرية القبة (?) Kubbe

ويرى المرء الحقول الغناء على أرض الصحراء الزراعية * وتبدو وكأنها تدعو للحياة بفعل سحر غامض * ان هذه الصحراء المزروعة تؤكد ما قاله نابليون - وهو قول حق - أثناء اقامته فى مصر : « اذا أتت الصحراء للنيل عم الخراب ،

(★) لم نترجمها (خديو) هنا : لان هذا اللقب لم يمنح لاحد قبل الخديو اسماعيل -
(المترجم) *

أما ان ذهب النيل للصحراء عم الرخاء » • وفي الحقيقة
فان رى الصحراء ريا دائما قد أدى الى ازدهار الخضرة
ازدهارا ثريا قلما يوجد فى أى مكان آخر •

ويعد ان تكون قد استدرت أمام قصر توفيق باشا ،
يتجلى لك سهل زراعى عريض خلف مزرعة أشجار زيتون •
وهنا ، فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ حقق الجنرال كليبر
بقيادته لعشرة الاف فرنسى نصرا باهرا على " " ٦٠٠ من
المصريين والأتراك •

وخلف قرية المطرية ، الى يسار الطريق — ترى شجرة
مريم « التى يتردد الناس عليها للزيارة كثيرا — وهى شجرة
جميل لا يزيد عمرها عن مائتى سنة (أما الشجرة السابقة
عليها فقد انتهت سنة ١٦٦٥) ويقال ان مريم وطفلها قد
استراحا تحتها عند هجرتهم لمصر • وتروى الأرض المحيطة
بالشجرة من الآبار ، وبعد ذلك أسماها العرب عين شمس
Heliopolis Ain Sherus (*) .

وعلى بعد قليل من الحديقة الى الداخل فى الأرض
الصحراوية توجد مزرعة نعام أسستها — مؤخرا — شركة
فرنسية تحت اشراف رجل سويسرى هو السيد وتر Wetter
ويتم تفقيس البيض بتعريضه لحرارة صناعية وتلقى
الطيور الناتجة عناية فائقة • ومنذ أربع سنوات خلت
أفرخت هذه الطيور ، وكانت آباؤها قد جلبت من السودان
والحبشة • وفى مارس ١٨٨١ كان اجمالى عدد هذه الطيور
ستين طائرا بين صغير وكبير وأنثى وذكر •

وعلى بعد نصف فرسخ من هذه المزرعة تقع خرائب
هليوبولس التى وصفناها آنفا • وفى هذا المكان المنعزل
تقف المسلة شامخة وحيدة شاهدة على أيام مغرقة فى القدم
تحبى — من بعد — مسافر هذه الأيام ، ومنظرة ساعة

(*) وهو خطأ مطبعى بالتأكيد والمصحح : Ain-Shmas والدليل المقابل الانجليزى
— (المترجم) •

سقوطها واندثارها ، فاذا ما اندثرت ، اندثر باندثارها
آخر شاهد على أرض مصر يدل على أنه كانت هنا مدينة
الشمس الزاهرة * وليس أمامنا الا أن نتوقع أن تتبع المسلات
الأخرى فتنقل الى مكان ما فى أوروبا أو أمريكا * .

دعونا الآن نعد لخبراتنا الشخصية بعد هذا العرض
البليغ الذى قدمه برجش باشا Brugsch .

غير بعيد من المسلة يوجد بستان يمتلكه الخديو عامر
بأشجار البرتقال وبينها ممرات تزينها الورود والنباتات
الأفريقية * ولا تزيد مساحة الحديقة عن كثير من الحدائق
الملحقة بالمساكن الريفية فى أوروبا ، ويحيط بها سور طينى ،
وتقع بالقرب من قرية وسط أرض زراعية * .

وحثنا البارون ساورما لنسعد للصيد ، وبينما كنا
ندخل الحديقة (حديقة الخديو انفة الذكر) خطرت لى فكرة
أننا سنجد هنا فى الغالب الأعم حمائم النخيل الأفريقية او
بعض طيور الجنوب الصغيرة ، لكننا سرعان ما تعلمنا شيئا
مخالفا لما خطر ببالى * واختبأ عدد من الرجال تحت أشجار
البرتقال المحملة بالفاكهة بالقرب من الطريق الرئيسية التى
تقطع الحديقة ، أما أنا فقد كمننت بالقرب من السور * .

وأطلق ساورما كلبين ممتازين من نوع الدشهند وتابعت
باهتمام بالغ ميدان الصيد * وبعد دقائق قليلة سمعت
الطلقات ، أعقبها فاصل قصير من السكون ، لكن الكلاب
سرعان ما نبحت فى الجانب المقابل ، فتركت موقعى لأقترب
وأقترب ، وفجأة سمعت حركة حيوان يأتى مسرعا من بين
الأشجار يقترب فى اتجاهى ، وفى لحظة أصبح ابن آوى
يقفز قفزة كاملة تحت السور ، فأطلقت عليه فهوى ،
فخلعت بغنيمتى بمشقة من الكلاب التى تبتها فى الطريق

الضييق الملاصق للسور . لقد كان من نوع ابن آوى الأفريقي
الضميم . أحمر مشربا بصفرة ، نحىلا ، طويل السيقان
مدنب الأذنين . وكان هويوز Hoyas أحد رفاقي — محظوظا
جدا فقد ضمن لنفسه ذئبة من النوع الأفريقي المعروف
علميا باسم الذئب الشائع Canis Lupaster .

وظهر ذئب آخر بينما كنا نصطاد مرة أخرى فى الحديقة
بمساعدة بعض أهل البلاد . لقد سمعت صوت تسلله بين
الأشجار بل ان مساعد الصيد التابع لى رآه ، الا أن الحيوان
الحذر استطاع الفرار بالقفز فوق السور دون أن يلحقه
أذى . ورأينا أيضا اثنين من طيور الشنقب (٣٨) (بتشديد
الشنين وضمها وتسكين النون وضم القاف) ولم تصبهما
طلقاتنا . وحلقت الكراكي (طيور الفرنوك) عاليا ،
وانتشرت طيور مختلفة أنواعها بين أشجار البرتقال
المورقة .

وغادرنا الحديقة بعد فترة صيد قصيرة — لحنها ناهية —
واتخذنا طريقنا لمقر إقامتنا . لقد غربت الشمس وزحمت
الظللة وظهر الشفق صابغا الغرب بلون احمر . لقد كان
الطريق غير ملائم بما فيه الكفاية للسير فيه ليلا ، خاصة أنه
طريق خطر بالنهار عند مجازه الضيق المرتفع ، لذا فقد
رأينا أن نترك القناة (الترعة) التى تمر بالأراضى الزراعية
وأن نتجه بخط مستقيم نحو الصحراء ، وسارت الأمور فى
البداية سيرا طيبا ، لكن قوة الخيول بدأت تتلاشى فراح
تسحب الحافلات الثقيلة ببطء كان يزداد بالتدريج فى
الرمال العميقة ، وبهذه الطريقة كان يمكن أن نستغرق
عدة ساعات للوصول للقاهرة لذا فقد عدنا للأرض الصلبة
(الزراعية) مرة أخرى بمساعدة حملة المشاعل .

وتجاوزنا حديقة قلعة (٩) kub Castle وكانت الحفائش
تحاق بين النخيل ذات الحفيف وأشجار الجميز الغليظة وكانت

الروائح العطرية تنبعث من بساتين البرتقال • انها عطور
مزارع الشرق المسكرة • وامتلات السماء بنجوم لا حصر لها ،
وأنعش الهواء الدافئ الناعم وجوه الأوربيين البائسين •
لقد كانت ليلة أفريقية حقيقية فى الغاية من الروعة ،
اذ ينبغى على المرء أن يدرك السحر اللذيذ لهذه البلاد السعيدة
ليفهم جاذبيتها التى تفوق الوصف وفتنتها التى لا حدود لها
والشوق الشديد لكل من عاش فيها ليعود اليها • ففى هذه
البلاد فقط ولا سواها يمكن أن يكون مهد البشرية حيث
الشرق المزهر الباسم ، والصيف الواضح غير الكئيب ،
لا فى بلاد الشمال الباردة الجرداء العابسة •

كان الطريق جيدا من kub الى القاهرة فوصلنا
سريعا لقصر النزهة وكان عشاؤنا جاهزا وكذلك تجهيزات
قضاء الليل استعدادا لليوم التالى •

وبدأنا فى صباح اليوم الثانى والعشرين مع البارون
ساورما فحملتنا الحافلات عبر الأحياء الأوربية ثم على طوال
الموسكى حتى انتهى الطريق الذى يمكن أن تسلكه الحافلات
عند آخر منزل ، وبعدها بدأت تظهر الخرائب والقبور
القديمة • والمنطقة الواقعة بين القاهرة وسفوح المقطم -
وهى منطقة صحراوية صخرية واسعة مليئة بما يمكن
تسميته بمدينة المساجد الجنائزية القديمة بالاضافة الى
قبور مختلفة الأشكال للمسلمين ، وثمة مقابر شبيهة عند
الجانب البعيد للقلعة ، وان كانت مقابر المماليك أقل قيمة
بالنسبة للزائر •

ومن بين كثير من المساجد الصغيرة والكبيرة الموجودة بين
قبور الخلفاء ، يعتبر جامع قايدباى kait-Bey هو الأبهى
عمارة وقد زينت قبته زخارف ثرية •

وفى حرم هذا المسجد يوجد مكعبان حجريان على كل منهما أثر قدم من قدمى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كان مؤسس المسجد قايدباى قد جلبهما - كما يقال - من مكة (المكرمة) •

ويرى المرم اذا ما تجول راكبا فى مدينة القبور هذه ما هو جدير بالنظر ، فأمامنا توجد المنحدرات الصخرية الوقور ، والى اليمين توجد القلعة المشيدة من الصخور وفوقها مئذنتها الجميلة السامقة ، وحولنا قبور مختلفة أشكالها ، وشواهد قبور ومساجد ، وكلها قد تساقطت بعض أجزائها وضربت بها رمال الصحراء * وترتفع بينها تلال صغيرات فوقها مبان حجرية عربية فوقها ما يشبه الأبراج ، والجانب المأسوى للصورة وجود علامات كثيرة تشير الى أن الكلاب وأندئاب والضباع وحيوانات ابن آوى قد حفرت قبور الموتى المسلمين ليلا •

ووصلنا سريعا الى المحجر The Stone Quarries ، بجوانبه الشاهق ارتفاعها وكتله الحجرية الضخمة المتناثرة هنا وهناك • وتركنا حميرنا هنا وتسلقنا بشق الأنفس صاعدين ممرا ضيقا بين الأحجار من ناحية وجرف (منحدر) الجبل من ناحية أخرى حتى وصلنا لمنتصف ارتفاع الجبل • ان الرياضى المحترف يحتاج لتفكير عميق لتسلك بعض المواضع فالصخور الملساء سواء الرمادية التى تعترىها صخرة أو البنية الداكنة ، يحتاج تسلقها لحذق خاص ومهارة فائقة والا تعرض متسلقها لكارثة •

ووجدنا عربيا الى جوار حمار ميت ، فى شعب ضيق غير بعيد عن أحد حواف الجبل التى تشبه القلعة •

وهنا شيد البارون ساورما جدارا (سورا) أمام مدخل مغارة ، وتسقلت أنا وعمى وخادم ساورما وعثمان النوبى

الحاذق والمشرف على الصيد التابع لى - تسلقنا جميعا على أربع (على اليمين واليسار) فوق حافة ضيقة وهبطنا لنكون فى مكان غير مريح ولم يعتد أحد الكمون فيه ، وعاد البارون والعرب الى المحجر ليتابعوا القنص عن بعد ، واتضح ان المسافة مناسبة فطلقة يسيرة نطلقها تجاه قاع الشعب كافية لاصابة هدفها . ان نظرتنا للموقع من مكان مرتفع تؤكد ذلك .

لقد أصبح الجو مليدا وتساقط بعض المطر ، وهذا أمر نادر الحدوث فالناس يقولون ان الأمطار لا تسقط فى القاهرة الا سبع مرات فى السنة ، لسوء الحظ فقد كانت احدى هذه المرات السبع من نصيبنا مع اننا كنا نريد جوا صحوا .

ومضى وقت طويل ولم يظهر ما نقتنصه ، ووصلت الى أذاننا أصوات الأبواق والصرخات القادمة من القلعة ، وكان الهواء ثقيل ، والمكان ضيقا ، فلم نكن قادرين على الحركة ، مما جعلنا لا نحس بالارتياح . وأخيرا هبط زوج من الغربان وبعض الحشرات الباحثات عن فرائس لافطارها ، كما رأينا نسرا من نسور الجيف برأسه الأصلع .

ودفعنى الملل وطول الانتظار الى أن أنصح عمى - الذى لم يكن قد أطلق النار أبدا على أى من هذه النسور - أن يطلق النار ، ولم يكن قولى بأسرع من فعله ، وهبطت سريعا الى البقعة بمجرد انقشاع الدخان وتوسلت الى عمى أن ينتظر فترة . فالشمس حامية وهبطت بالغنيمة المتواضعة الى المحجر . وعند وصولي وجدت أنا والبارون ساورما موقعا مناسب للمراقبة . وتوالت الأحداث بينما كنت أمسك بتلسكوبى .

لقد ظهرت نسور ضخمة فى البداية من النوع المعروف باسم Vultur fulvus ، وحدث هذا فى غضون ربع

ساعة من وقوفنا فى موقعنا الجديد • لقد دارت هذه النسور حول قمة الجبل وهى تضرب الهواء بأجنحتها ضربا رقيقا ، لقد ظهرت هذه النسور الواحد فى اثر الآخر وسرعان ما تجمع منها ستون •

لقد أزفت اللحظة المثيرة عندما كف النسر الأول بجناحيه عن التحليق وهبط بين الصخور ، فحذت النسور الأخرى حذوه ، فهبطوا ككتل الحجارة نسرا اثر نسر ، وبمجرد أن هبط النسر الأخير رأينا دخانا يرتفع من أعلى الموقع فتشتت شمل مجموعة النسور اثر الطلقة الأولى •

واستطعت رؤية نسر أصيب بجرح بالغ يتدحرج بين الصخور بمساعدة تلسكوبى ، كما رأيت عثمان يسرع للامساك به بينما لم تغادر النسور الأخرى الموقع وانما راحت تدور حوله ، وجريت بأقصى ما أستطيع لأصعد الممر الصخري الى المكمن • لقد استطاع الدوق الكبير قتل خمسة نسور هائلة بطلقة واحدة فى لحظة واحدة بينما كانت رءوسها جميعا تمتد لنهش جيفة • ووضعت هذه الغنيمة العظيمة فى مكان بين الصخور •

ويمكنك أن تتصور مبدى الرائحة النتنة المنبعثة من هذا المكان الضيق ، وظلت النسور تحلق طوال نصف ساعة أخرى حول حافة المنحدر الصخري ، لكنها لم تتمكن من الانقضاض على أية جيفة ، وبعد ذلك انسلت جميعا نسرا اثر نسر عائدا الى الامتداد الجبلى • ونحن أيضا اتخذنا طريقنا هابطين ، وسبقنا عثمان وكان مساعد القنص التابع لى ينتظر فى الرادى ، ووضع عبء العمل الشاق والمرهق على كاهلى الدوق الكبير ، فحملنا غنيمتنا الثقيلة والشمينة على ظهورنا وهبطنا الممر شديد الانحدار •

ولما وصلنا للمعبر كان الوقت عصرا واستغرقت عودة الآخرين التابعين لمجموعتنا وقتا طويلا فقد كانوا قد وضعوا ما اصطادوه بالقرب من مسجد مخرب وبعض المقابر على هضبة جبل المقطم ، وكان ما اقتنصوه عبارة عن أحد نسور الجيف وبعض الحشرات * ولم يكن من نصيبهم اصطياء نسر كبير *

وركبنا عائدتين خلال مقابر الخلفاء (٩) الى أقرب المساكن للمدينة حيث كانت حافلاتنا فى انتظارنا ، واتجاهنا فى خط مباشر للموسكى أخذ وقتا طويلا لأنه فى ساعات المساء الأولى تزدهم الطرقات بالغادين والرائحين فى هذه الشوارع ذات الطابع العربى الخالص *

وعند أقصى طرف الحى الشرقى عند بداية حى الموسكى بالقرب من المدينة الأوربية يوجد معمل بارفيس Parvis المشهور وهو من مواطنى تريست Trieste * هذا الرجل الماهر مهارة غير معتادة ينتج كل المصنوعات الشرقية المناسبة بشكل خاص للغرف * وقدمت لى الجالية النمساوية المجرية هنا كل الأدوات الخاصة بغرفة التدخين ذات الطابع الشرقى الصميم * لذا فقد توقفنا فى طريق عودتنا عند بارفيس Parvis لنطالع هذه الأدوات الجذابة المتكاملة * وبعد فترة يسيرة عدنا الى قصر النزهة فتناولنا عشاءنا وخذلنا للراحة مبكرا *

وكان علينا أن نغادر القاهرة فى اليوم التالى لنذهب كقرىق صيد الى مديرية الفيوم ، فاذا ما أتممنا رحلتنا إليها سعدنا فى النيل فى رحلة للصعيد *

الفصل الثالث

رحلة الى (أبو سكر) فى الفيوم - الحمام -
 الخط الحديدى - الخط الحديدى الفرعى -
 البربر - قصب السكر - ليس فى الشرق عمل
 يتم بيسر وسهولة - البدو - العمال الزراعيون -
 الطيور - الذئب - الحياة الحيوانية البرية عامة
 - بحيرة قارون - حصيلة الصيد - رمال الصحراء
 - وصف الفيوم - كثرة الذئب - ركوب الباخرة
 النيلية للتوجه الى أسيوط - رسوم الفنان
 المصاحب - تعليقات المترجم *

لقد تجمعت المجموعة المسافرة فى بكور صباح اليوم
 الثالث والعشرين من شهر فبراير فى محطة القطار المتجه
 للجنوب (خط الصعيد) الذى لا يؤدى الى أسيوط فحسب
 وانما يخرج منه خط فرعى يؤدى الى مديرية الفيوم *

وقد تلىف الهر زمرمان Herr Zimmerman مرة أخرى
 فاستقل القطار معنا ليصبحنا الى المحطة الأخيرة (أبو سكر)
 أما الأمير تاكسيىس Taxis فكان قد سافر قبلنا بيوم ومعه
 المترجم الى بركة قارون Birket el-Karun (بحيرة قارون)
 لينصب خيامنا ويجرى الاستعدادات اللازمة لأيام الصيد *

لقد كان مسار الخط الحديدى فى البداية بجوار شريط
 ضيق من الأرض المزروعة ، التى تمتد بين الشاطئ الغربى

للنيل والصحراء • ان الطبيعة الكثيفة للزراعة المصرية تتجلى بوضوح هنا فثمة زروع كثيرة فى مساحة ضيقة • وتعاقت قرى الفلاحين البسيطة وغابات النخيل ، ويلاحظ أن القرى هنا أكبر من قرى مصر الدنيا (الدلتا) • وقد استرعى نظرنا أبراج الحمام المبنية على الطراز العربى ، ويقدم المصريون للحمام هذا المأوى كما يقدمون له الحماية لا لشيء الا لما ينتجه هذا الحمام من سماد طبيعى . (زبل الحمام) وأحيانا يستفيدون من بيضه وزغبه (ريشه) وليس للحمام المصرى طبيعة داجنة باية حال فهو حمام جبلى قاس بالفعل سواء من حيث ألوانه أو أحجامه كما انه غير ذلول أبدا •

وغالبا ما كان الخط الحديدى يقترب من النيل ، وهو دائما — أى الخط الحديدى — يقع على الضفة الغربية للنهر (الى اليسار منا) ، (١) أما الى الشرق فالجبال المسحراوية تقترب من المجرى ، أما الى الغرب فتقع الصحراء الليبية (صحراء مصر الغربية) التى تبدو كأعواج من الرمال المتحركة لكنها مسطحة بشكل عام •

وتجاوز القطار الأهرامات ، وقد رأيناها بوضوح ، وفى البداية ظهرت رعوس الجيزة الرمادية (رعوس الأهرامات) أكثر الآثار المصرية مدعاة للفخر ، تم تلا ذلك ظهور أعضاء الأسرة الأصغر ممثلة فى أهرام سقارة • لقد تعودنا نحن الأوربيين أن نرى نخلة واحدة ، أو نخلة تقف منعزلة بمفردها فى دفيئة (مكان لانبثاق الأشجار التى تحتاج لحرارة) ، (٢) أو على الساحل الأوروبى الجنوبى . أما هنا فان غابات النخيل بحفيفها وكثافتها تعد رمزا صادقا لأفريقيا المشمسمة •

وفى الساعة العاشرة صباحا دار قطارنا تاركا الخط الحديدي الرئيسى الذى يتبع مجرى النيل حتى أسيوط ، لينتقل الى الخط الحديدي الفرعى المتجه غربا بين صحراء جدباء قاحلة • ان الرحلة فى هذه المنطقة الجرداء رائعة جدا فى تفردھا واثارتھا للدهشة •

لقد انتقلنا فى لحظات تاركين النيل العامر والخضرة اليانعة المثمرة التى أشبعت ریا لا مثیل له الا فى هذه القارة السوداء (المظلمة) Dark Continent الى صحراء ساكنة لا حياة فيها •

وينطىء الذين يتصورون الصحراء مكانا مسطحا مستويا ككثير من مستنقعات الأدغال المجرية أو سبخات شمال المانيا فالصحراء منظر الأمواج كما أن بها مناظر متباينة ، وغالبا ما يكون فيها تمعجات كثيرة كما تقطعها الوديان وتجللها التلال ، وغالبا ما تكون هذه التلال فرادی لا تشكل سلاسل ، ولا أثر لحياة نباتية على الإطلاق وليس بها من الحياة الحيوانية الا الشئ القليل عند أطرافها القصية حيث استطاعت بمض الحيوانات التكيف مع ظروف الجفاف •

ومع هذا فالصحراء تبدو للرحالة جلييلة جميلة ، انها صورة للراحة كما أنها ثرية بالألوان ، لقد وهجتها شمس أفريقيا المحرقة • أما تباين الألوان فيرجع لاختلاف أنواع الصخور التى تتخذ فى الغابات لونا أصفر شاحبا ثم تراها أحيانا داكنة ، وأحيانا أخرى تراها منقطة بسواد على أرضية بيضاء ، كما أن هناك صخورا مخططة • ان اختلاف الصخور يعطى المشاهد خليطا سحريا من الألوان •

ولم نر أى مظهر من مظاهر الحياة ونحن ننظر من القطار الذى يقطع هذه الفيافي الجرداء • الا أننا شاهدنا

بعض البدو فى عباآت بيض (برانس burnous) يحملون
بنادق طويلة قادمين من وراء التل * انهم بربر خلص
يقطنون هذا الجزء من الصحراء (٣) * انهم أبناء الأرض
الأحرار انهم أسعد الرجال لا يخضعون لحكم Uncontrolled
شجعان ، سلابون نهابون ، متمردون الى أقصى درجة *
وتتباين القبائل المختلفة تباينا كبيرا فى مظهرها وازيائها
بل وفى صفاتها المميزة وفى أسلحتها ، لكن مصر جذبت
بسبب جمالها القبائل الصحراوية القادمة مما وراء مراكش
Morocco ، والقادمة من آسيا أيضا ، فجنوب غرب آسيا
يقطنه أيضا العرب الساميون Semitic Arabs ، وعادت
الخضرة فصافحت أعيننا مرة أخرى فى حوالى منتصف النهار ،
فظهرت الزروع كبقعة خضراء وسط الرمال الصفراء * انها
واحة الفيوم الكبيرة * انها - بكل وضوح - أرض خصبة
قد أحسن أهلها زراعتها ، تتخذ شكل الدائرة وتحيطها
الصحراء من كل الجهات (٤) * وتشكل بحيرة قارون الذبيرة
حدها الغربى ، كما أنها - أى البحيرة - تفصل بين الأرض
الزراعية من ناحية والصحراء من ناحية أخرى * لقد مررنا
خلال جزء يسير من هذه الواحة الخصبة كان مزروعا بقصب
السكر ووصلنا الى محطة (أبو سكر) Abuskar * انها محطة
مغربية لا تستحق أن تكون محطة حتى فى وسط أفريقيا ،
وتشكل مبانى المحطة مع مصنع السكر الموجود هنا مستوطنة
(قرية) صغيرة *

ولا يذهب بك الخيال الى الظن بأن مصنع السكر الذى
نشير اليه هنا يعد مصنعا كبيرا على النمط الأوروبى كمصانع
السكر التى نراها فى بوهيميا Bohemia * ان مصنع
الفيوم هذا مجرد مبنى بسيط يعتريه الإهمال الى حد ما ،
لكنه يستفيد من قربه من مزارع القصب التى تنتج كميات
كبيرة ، ولا يشير لكونه مصنعا الا بعض المداخل المنخفضة *

وتناولنا طعام الافطار بسرعة فى غرفة الانتظار بالمحطة . لقد كانت بدائية بل دون البدائية ، ثم أسرعنا املا على ان تكون فافلتنا جاهزة ، فليس فى الشرق عمل سهل فكل شخص يضغط طلبا للخدمات ، ويضغط (يبت) على حصانه وحصاره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدع الآخر لينجيه جانبا والكل يصرخ والكل يومىء ، ويضطر الغريب البائس فى خاتمة المطاف لالقاء نفسه بين ذراعى أول قادم (٥) . فبمعونة بعض العساكر وبالاستعانة بمعصينا الخليطة التى تستحق الشكر استطعنا أن نحول الفوضى وعدم الوضوح الى أمر قابل للتنفيذ .

وامتطى كل واحد منا حصانا وكذلك خدمنا ، وأكثر من هذا فقد كان علينا أن نرتبط بحمالين ليحملوا كلابنا من نوع دشهند dachshunds ، وهو أمر لا مفر منه فى هذه المنطقة ، وقسمنا الكلاب لمجموعات منتظمة ، فأصبح فى حوزة البارون ساورما عشرة من هذه الحيوانات الشجاعة القوية ، أما نحن فكان معنا أربعة منها . وبيع بعض المشقة أمكن ابعاد الناس المزدحمين حولنا حبا فى الاستطلاع ، وتم منعهم من متابعتنا .

وقد ركب البدو القناصون الذين اضطررنا لاصطحابهم وجعلوا خيولهم تسبقنا . انهم من قبيلة صغيرة نائية المضارب يلبسون ثيابا بيضاء ، وان شئت الصدق - فان برانسهم قد تحولت لفرط قذارتها الى اللون الأصفر وكان معهم بنادق طرييلة وخناجر bent knives وأكياس لحفظ التوباكو ، وكل هذه الأشياء بالاضافة لأكياس البارود (أجربة البارود) والرصاص ، قد ربطوها باحكام حول خواصرهم ، وكانت سيقانهم الطويلة عارية كما كانوا يلبسون أخفافا (جمع خف

بضم الخاء) فى أقدامهم * وهم هنا - كما هم فى كل مكان
بشمال إفريقيا - ليسوا أكثر من متسولين بأسيان *
فمظهرهم الخارجى غير طيب وملابسهم رثة ، بل وهم
لا يغطون رؤوسهم بعمائم وإنما بطواق ضيقة بنية اللون
كطواقى الفلاحين ، بل وحتى الشباب منهم كانوا حاسرى
الرءوس *

ان طبائع هؤلاء البدو متيرة للاهتمام * انهم بربر اصلاء
من الصحراء الليبية ، وألوانهم داكنة ومظهرهم انسارجى
يوحى بصلاية اشد مما عليه سكان النيل الأدنى (الدلتا)
وغالبهم طوال القامة ويتسمون بالنحول ، وان كانت ملابصهم
اقل نبلا وجمالا من ملامح القبائل البدوية فى الشمال *
فالدماغ الزنجية واضحة فيهم ، وبعضهم أسود تماما وله شعر
مفلفل قد يحسبهم المرء من البربر (Moors) (٩) * وقد تم
استرقاقهم (سرقتهم) عندما كانوا أطفالا من موطنهم فى
داخل أفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التى نشأوا
فيها (تم عتقهم) ، لكنهم ظلوا محتفظين بلغة البدو وزيتهم
وعاداتهم ونسوا أصولهم تماما ، بل لقد نسوا حتى البلاد التى
قدموا منها * وقد رأيت لهم شبيها فى كل القبائل التى
أتيت لى فرصة معرفتها سواء فى أفريقيا أو آسيا (٦) *

وحتى العمال الزراعيون حول (أبو سكر) لفتوا نظرى ،
من حيث كونهم من نوع مختلف عن الفلاحين الذين يسكنون
وادي النيل الأدنى فهم أضخم حجما وأشد دكنة وأكثر شبها
بالبدو الموجودين فى السواحة (الفيوم) التى تطوقها
الصحراء ، والذين يتصلون بهم * لذا - فمن الواضح - أن
هؤلاء العمال الزراعيين يمثلون جنسا مخلطا * ويلاحظ
المرء بوضوح أيضا وجود عدد كبير من البربر بينهم *

وسرعان ما بدأنا الصيد ، فى حديقة مجاورة للمصنع
الآنف ذكره وجدنا طائر الوروار (٧) bec-enter

(الوروار أو الخضيراء أو الخضار) وهو طائر أزرق الوجه ،
ولونه أخضر وإن كان له خطوط طويلة زرقاء على جناحيه
ورأسه •

ويرجع أصل هذا الطائر الى المناطق الداخلية فى اسريقيا
لكنه منتشر فى صعيد مصر ، ولا يصل فى تحليفه للماهرة
التي تبدو فى موقع شمالى لا يتلاءم معه • وكان حول الحقل
مليور ابو طيط (٨) (البيويت) وهى طيور ضخمة الحجم
وجذابة كما أنها مليور أصيلة • كما كانت هناك أسراب من
البليشون (طيور مالك الحزين) ، وهنا - كما فى أى
مكان آخر بأفريقيا - تتجمع الحياة الحيوانية فى المناطق
الخصبة والتي يتوفر فيها الماء • لقد كانت البشائر تشير
الى أننا سنستمتع بأيام صيد طيبة •

وسرعان ما سمعت أصوات طليقاتنا وتساقطت قنائصنا
من الطيور التي أحضرها العرب المصاحبون لنا من الحقول
المبتلة •

واستمرت القافلة نى طريقها بغير لها وخدمها وأمنمتها،
الا أننا جميعا تركنا ما كنا مشغولين به عندما دعانا البارون
ساورما اليه ، فقد كان قد اكتشف حقل قصب سكر كبيرا
واحتزم عبوره بصحبة الكلاب • وكانت المشكلة الوحيدة
التي واجهتنا هى التخلص من العمال الكثيرين حتى لا تصيب
طليقاتنا أحدا منهم • وكان على كل السادة أن يتخذوا مواقعهم
حول الحقل ، واقترح ساورما أن أدخل الحقل ومعى مسئول
الصيد My huntsman وقطيع من أربعة عشر كلبا •
لقد كان القصب فى ارتفاع قمة الرجل • وقبل أن نتخذ لنا
أماكن سمننا الكلاب تنبج نباحا مرحا وأعقب ذلك صسوت
طليقتين • وجرى واحد من جماعتنا مسرعا للأمام ، آملا أن
يكون أول من يصل الى طرف الحقل البعيد ، وبينما كان

لا يزال يجرى حتى احضرت الكلاب ذئبا كبيرا كان على بعد خطوات منه فى حقل مكشوف * ولسوء الحظ فقد انحسرت رصاصة فى بندقية كانت مصوبة نحو طيور الزقزاق (٩) والبلشون (مالك الحزين) ، وأسرع ايسيجرم Isegrim وترك الحقل المكشوف الى أقرب سائر *

وفى وقت قصير كان نباح الذئاب يدوى فى كل أرجاء حقل قصب السكر ، ودوت الطلقات ، لقد أطلق اثنين من مسؤولى الصيد طلقتين صوب الذئب دون جدوى فقد كانت هذه الحيوانات حذرة فهي لا تكاد تغادر القصب حتى ترتد عائدة اليه وتختفى داخله ، فاطلقنا كثيرا من الطلقات تجاه هذه الذئاب وهى تندفع داخل القصب ، وسرعان ما دنا نباح الكلاب ، وبعض شرائط دم على أن الطلقات قد أصابت هدفا فغادر عدد من الرجال مواقعهم فى حماسة وراحوا يطاردون القنصاء ، وان كان من الصعب أن يرى المسرع لمسافة خطوتين بين أعمود القصب الكثيفة ، فذهبت - لذلك - جهودهم سدى *

وخلال هذه الرياضة الوحشية التى لم تكن منظما على نحو ما ، لم أطلق طلقة واحدة * وبعد نصف ساعة من الانتظار كان معظم الرجال قد غادروا بالتدخل بواسطة ليكونوا بالقرب من الكلاب النابحة ، اكتشفت مدقا (طريقا ضيقا) بين مزرعة القصب *

وأسرعت على طول هذا المدق (* ١) (الطريق الضيق فى حقل القصب) حيث كانت هناك قناة صغيرة (مجرى) للمرى وأتيح لى ممر لا يزيد عرضه عن ياردة ، ووجدت هنا مكانا يسمح لى باللاق النار فوقفت منتظرا تقدم الطرائد ، وتقدمت الكلاب ببطء لأن الذئب الجريح قد استدار وهو يعمى فى اثرها ، ولما اقترب الذئب منعتنى الكلاب من اطلاق النار خوفا من اصابتها * لقد سمعت بوضوح زمجرة الذئب

محتلطة بنباح الكلاب * وفى غضون لحظات توقف صوت السرخه والزمنجره والنباح ، رغم السخون * لقد امست الكلاب بالذئب باصرار ، ولا يستطيع المرء أن يقرر ما اذا كان هو الذئب الجريح * وبعد لحظات أخرى سمعت نباح مجمره كلاب أخرى فادما من الجانب الآخر المقابل للحقل وهذا يعنى أن عملية صيد تجرى من جديد * وانسمع الصائدون مرة أخرى داخل الحقل فى اتجاهى ، وكان يمكننى أن استنتج ان الكلاب كانت فى اثر ذئب جريح ، ولما أصبحت الكلاب على بعد مائة خطوة منى كان يمكننى أن استنتج أنها فى وضع حرج ، وبينما كنت مستغرقا فى هذا التفكير سمعت - على حين غرة - حفيفا خفيفا بالقرب منى ، فالتفت فوجدت ذئبا غير جريح يتسلل على طول الممر الضيق (المدق) ، فأطلقت عليه النار فورا وسعدت أذناى بصوت سقوطه وأسرعت الى البقعة التى هوى بها ، فرأيت مكسور الظهر يزحف فلا هو جالس ولا هو ممدد ، وقد أظهر أنيابه ، وسمعت بعض الكلاب صوت الطلقة فأتت وبدأت الآن معركة حياة أو موت لكننى وضعت حدا لهذا بطلقة فاصلة *

لكن ، اذئب واحد يكفى كل فريق الصيد ؟ لقد أطلقنا النار على أربعة ذئاب أخرى ، ولم نستطع أن نقطع وقتا طويلا فى متابعتها فقد أقبلت الكلاب ، كلبا فى اثر كلب الى حواف الحقل * لقد بذلت هذه الكلاب الشجاعة جهودا نشطة رغم الشمس الحارقة *

لقد عدنا جميعا الآن الى خيولنا ونحن فى حالة رضى ؟ سواء قل هذا الرضا أم كثر ، لقد ناقشنا بعجب ثروة المنظمات من الحيوانات البرية والأثر المضحك لصيدها فى حقول مزروعة ، وكأنها طيور الجبل (١١) *

وتحركت قافلتنا مرة أخرى فى طريق متعرجة وموحلة فى مواضع كثيرة ، وكانت العلة ، تجرى بين حقول كثيفة

زراعتها * وتركت الشمس تأثيرها القوي علينا فأحدثت
جمودنا ، فهذا داب شمس أفريقيًا * حتى الفتى مرجان
Fata Morgana أنرت فيه الحرارة ، وحتى البربرى
الدى خان يسير بجانب حصانى راح يلحن الحرارة وهو
يمطر عرقا * لقد كان هذا البربرى مخلوقا متنردا شالدماء
الزنجبية تجرى فى عروقه ، فوجهه أسود مغطى بالندب كما
أن لحيته المدببة القاسية ، وملامحه الدقيقة تنم عن دماء
عربية * وقد سمحت له أن يحمل بندقيتى فابتسم ابتسامة
الرضى فظهرت أسنانه البيضاء وراح يتفحص السلاح الأجنبى
بمبنى خبير *

ونظرنا لطريقنا من البعد بين الحقول الباسمة والأدغال
ذوات الخضرة الداكنة التى تنعكس صورتها على صفحة بحيرة
قارون وكأنها صورة على صفحة مرآة صافية ، وخلفها خط
برتقالى طويل من الصحراء الكبرى *

ورقف عقاب (صقر حوام) (١٢) - وهو المائر
أفريقى - فوق رابية منخفضة غير بعيدة عن خط سيارنا ،
فترجلت من فوق حصانى وتسلمت بالقرب منه لكننى فشلت
فى اصابعه بطلقتين واهنتين ، ولم تزد هاتان الطلقتان الا
أن تحرك ليزداد قربا منى ، فأطلقت مرة أخرى دون أن
أصيبه وما زادته هذه الطلقة الثالثة الا أن جعلته يرفرف
بجناحيه وهو ثابت فى مكانه ، فما كان منى الا أن عاجلته
برابعة لم تكن معبأة جيدا ، فهوى *

ويهد هذه الجولة البسيطة وصلنا لقرية يائسة ضربها
الشمس * اذ كانت عبارة عن بيوت طينية معظمها مهدم ،
فمنظر القرية لا يتناسب أبدا مع البهاء المبهى بها ممثلا
فى أشجار النخيل الساقطة وأشجار الجوز الكثيرة * ويخرج
أهل القرية بأثوابهم الممزقة ومعهم الأدغال مرارة تملأ

— ليشاهدونا • واستدار الطريق عند القرية لنجد أنفسنا على شاطئ البحر •

فأنزلنا حمولة خيولنا وحميرنا وترجلنا وركبنا القوارب، التي كانت هزيلة جدية بأن تذكرنا بقوارب أجدادنا البدائية وبيوت البحيرات في مطلع التاريخ ، وكانت مجاديفها بدائية للغاية • انها مجرد صناديق مسطحة مربعة يقوم عليها خمسة أشخاص أو ستة • أما داخل القوارب فكان قدرا مليئا بعظام السمك وقاذورات متنوعة خاصة من السمك المتعفن • لقد كانت الرائحة العفنة شديدة فلم نجد خيرا من التدخين يغير انقطاع — وسيلة ليحمينا الى حد ما •

ومن المحتمل أن يكون المصريون القدماء قد استخدموا قوارب على الشاكلة نفسها ، وما كانت قواربهم على أية حال أسوأ من تلك التي يستخدمها اخوانهم هذه الأيام في بركة قارون •

وانسابت قواربنا فوق سطح البحيرة مع رذاذ الماء الذي تثيره المجاديف البدائية ، ومع الأغاني السوداوية (١٣) • وليست هناك زروع الا على جانب واحد من جوانب هذه البحيرة الجميلة أما الجوانب الأخرى فتحيطها الصحراء • وعلى طول شاطئها يرى المرء شريطا من شجيرات منخفضة ، ويصبح هذا الشريط طورا عريضا (ذا عمق) وطورا ضيقا (بغير عمق) ، وهذا الشريط الدائري الأخضر يعطى البحيرة طبيعة خاصة • ولا يرى المرء سكانا — انه منظر عظيم لكنه — بغير شك — يدعو للحزن • ويزيد من هذا الشعور هذا الماء المالح العميق • انه لأمر غريب أن يرى السائح هذا البحر الداخلي بعيدا عن المحيط (ليتفضل القارئ بمراجعة الخريطة) يبيع بالأسماك وغيرها من الحيوانات البحرية •

ان الصحراء كلها مالحة تماما وكذلك البحيرات الواقعة عند طرفها * وبعد حوالى نصف ساعة من التجديف رايتنا بعض البجع (١٤) يسبح قريبا فتابعناه ولم نستطع اللحاق به فهو سريع العوم * واخيرا وبعد محاولات عديدة خلقت هذه الطيور السمينه بوقار لتبحث عن مكان آخر فى البحيرة ، ولم نر غير ذلك سوى البط البرى وطيور الغطاس (الغواص) وطيور النورس (١٦) (زمج الماء - بضم الزاى وتشديد الميم وفتحها) وعدد كبير من نسور النهر (١٧) *

ان الليل يزحف ، فقد غربت الشمس وراء الصحراء مخلفة أعظم الأثر فينا بما تمتعت به عيوننا من ألوان وضياء ، وعم السكون *

لقد اقتربنا من جزيرة قارون Beziré karun ، حيث كان مغروطها الصخرى Recky Cone يقف شامخا ، فى حاجة الى ريشة فنان يصوره بخلفية تشكلها سماء زرقاء داكنة *

وألقينا مراسينا عند شاطئ الجزيرة الشرقى المسطح ونصبنا خيامنا على بعد حوالى مائة خطوة من الماء ، وأشعلنا النار ، وانكمش العرب بين الشجيرات ، وحيانا الأمير تاكسس Taxis الذى كان قد سبقنا فوصل الى هنا فى الصباح الباكر ومعه قافلة كبيرة *

وتناولنا بعد وصولنا عشاء ممتازا أعده طبخ غربى فى خيمة أعدت لتكون صالة طعام * وكانت الخيام مريحة تماما ومصنوعة من خامات جيدة ، وكان لكل رجلين خيمة واحدة مزودة بالأسرة ، بل وحتى المناضد * ويجيد الشرقيون اعداد الوجبات فى الخلاء ، كما يجيدون نصب الخيام بسرعة وبشكل مريح * ولا أحد يباريهم فى ذلك ، فسهل هو من يسافر معهم *

وبعد العشاء تجوزنا ودخنا ورسمنا خططا لليوم التالى ،
وقبيل العاشرة خيم السكون على المعسكر . وقد تمدد العرب
حول المعسكر على الرمال فى الهواء الطلق فبدوا كالأشباح
ببباعتهم البيض .

ولم يمر الليل بهدوء كما توقعنا خلال امسيتنا الجميلة
فقد اليبس شاصمه غاييه فنادت تقنلع الخيام ، فتسلل حسن
المسرح من خيمة الى خيمه وراح ينبت اركانها ، وقد تم
اصدح ما افسدته العاصفة بسره لحسن الحظ ، وفى الصباح
ساب العاصفة قد خمدت .

وتناولنا افطارنا باكرا قبل شروق الشمس ، ورحنا
نلاحظ اسراب طيور الماء اثناء تجوالنا على شاطئ الجزيرة
لاختيار البقع المناسبة لتمرکزنا .

وما كدنا نغادر الخيام حتى راينا اسرابا من الغاق
وأنواع مختلفة من البط البرى والبلشون (مالك الحزين)
والبجع . وبدأ منظر البجع بالذات يبعث على السرور ،
فمنقار البجعة الطويل يتدلى بشكل مضحك ويبدو جناحاها
الهائلان قادرين على حمل جسمها السمين الضخم بصعوبة فى
الهواء . ومع هذا فالبجعة من الطيور التى تعتبر قادرة على
الطيران لمسافات طويلة . وقد ذهبت ومعى الدوق الكبير
The Grand Duke الى ساحل منبسط ، بالقرب من الخيام
واختبأنا بقدر ما استطعنا بين شجيرات الصفصاف .

ومر علينا فى مكننا هذا كل أنواع الطيور فأطلقنا
وكانت النتائج مثمرة فلم نكن نمكث الا قليلا لنطلق طلقات
أخرى . لقد كانت طلقاتنا متتابعة . وكان من بين صيدنا
طير النورس (زمج الماء) وهو نموذج مشوه لطيور الجليد
عندنا . ومما يؤسف له أننا لم نصطد بجعا ، فلم تمر علينا
واحدة فى مكننا هذا .

وسمعنا الطلقات تدوى من كل جانب فتوقعنا صيدا وفيرا * وفى اليوم الاول كانت الطيور تحوم حولنا ، اما فى اليوم الثالث فكانت الطيور تتحاشى الصخرة الخطرة لندور على البعد *

وفى غضون ساعة كانت معركتنا الصباحية مع الطيور قد انتهت وعدنا لخيامنا * وعلى أية حال فقد اصطدت فى غضون دقائق قليلة نسرين من نوع نسر النهر كانا يحلقان فوق رأسى *

وأقبل الرجال ، واحدا فى اثر الآخر * وكان بوسنجر Pausinger هو أوفرنا صيدا ، فقد اختبأ خلف شجيرة غير عالية بالقرب من الخيام فلما اقتربت بجعة بعد انتظار يسير ودنت فى طيرانها من الأرض أطلق عليها طلقة محظوظة فهوت *

وقبل أن أسجل لكم مزيدا من أحداث هذا اليوم أريد أن أصف الجزيرة نفسها ، فالجزء الشرقى منها - مثله مثل الجزء الجنوبى الشرقى - مسطح وتغطيه الشجيرات ، أما بقية أجزاء الجزيرة فصخرى منحدر فيما عدا الجزء الشمالى فيه شريط صغير مسطح ، وهو (لاجون) سبخ متصل بمياه البحيرة * وبين الساحل والصخرة الوسطى مسافة مسطحة قلما تزيد عن ثلاثمائة خطوة وهى مغطاة بالرمال الناعمة *

وفى الجانب الشمالى للجزيرة يمتلىء هذا السهل الضيق بالصخور الضخمة المتحطمة من الصخرة الوسطى الضخمة * وخلا بعض الشجيرات على الساحل فكل الجزيرة قاحل فلا وجود حتى للأعشاب * وتنجر المياه سواحل الجزيرة المتآكلة ولن يمضى وقت طويل قبل أن تتلاشى الجزيرة ولا يبقى منها سوى هذه الصخرة الوسطى الصامدة *

وقد غادر الدوق الكبير The Grand Duke والأمير تاكسس
Taxis المعسكر بعد ان مختا معنا قليلا ، وسرعان
ما تبعهم ومعى البارون ساورما . لقد كانت خطتنا ان نقسم
أنفسنا الى مجموعتين مع كل مجموعة عدد من كلاب الداشهند
وأن يبدأ كل فريق من ناحية ، ثم نتقدم حتى الصخرة
الوسطى .

وبين الصخرتين الأوليين ارتفع طائران من طيور
الزقزاق ، فأطلقت النار على أحدهما ، فقاد عثمان البارغ
الكلاب وأطلقها بين الصخور . لقد بدأنا الآن الصيد المشوق
والجاد . لقد كان على الواحد منا أن يقفز فوق صخور ناعمة
وأكوام من حجارة قاسية ليتابع الكلاب .

وأمام شق من الشقوق التى لا تحصى نبحت الكلاب
واختفت تبحث بين الأحجار ، وفى غضون ثوان قليلة ظهر
حيوان الوشق Lynx (١٨) مغادرا جحره وهو يقفز
قفزات واسعة ، فوقفت فوق صخرة خممت أنه لا بد أن يمر
أدنى منها ، وتم ما أردت فقد سقط بفعل الطلقة الأولى ولما
عاجل القيام عاجلته بالطلقة الثانية فخر . لقد كان حيوانا
قويا جدا ذا لون رمادى له قناذع من شعر على أذنيه . انه
وشق الصحراء الأفريقية الحقيقى . انه أضخم وأقوى من
نظيره الأوروبى .

وفى هذه الأثناء كان الدوق الكبير يبحث عن المنحدر
المقابل للجبل (الصخرة الوسطى) ومعه الكلاب قرأى وشقين
(بفتح الواو والقاف) لكنهما مرا سريعا فلم يستطع اطلاق
النار عليهما ، وتقابلت معه فى المكان المتفق عليه وسرنا معا
مصحويين بالكلاب ، وسرعان ما سمعنا صوت الكلاب المرح
(النباح الدال على استدلالها على طرائد) فأسرعنا للأمام
ولسوء الحظ ، فان عمى - وقد كان عليه الدور لاطلاق

النار - لم يتمكن من السير سريعا فوق الصخور فغادر الوشق جحره دون أن يلحقه أذى واختفى بسرعة بين الصخور ، وأسرت الكلاب تلاحقه بقدر ما تسعفها أرجلها القصيرة ويقدر ما يسمح به انحدار الصخور . وفى غضون دقائق قليلة توقفت عند مدخل جحر تحت صخرة كبيرة . وكان فى الجانب الآخر للصخرة مدخل آخر أوسع ، فحثنا الكلاب على الدخول فاندفع بعضها فى الجحر المظلم ، فخرج الوشق ليقتح فريسة لبنادقنا ، واختلطت دممة الوشق بعواء الكلاب التى عضها . لقد كان عواء حزينا وتوالت الطلقات الجديدة فقد كان الرجال يمارسون عملهم (الصيد) بشجاعة .

ووقفنا زهاء ساعة بجوار الجحر دون أن نلاحظ شيئا جديدا ، وكان علينا الآن ان نحث الكلاب على الخروج لنحلى الطريق للوشق ، وأخيرا خرجت الكلاب وقد اعتلاها التراب وبدأ عليها الارهاق ، ولم يبق فى الجحر الا كلبان كان من الواضح أنهما أكثر الكلاب دأبا واصرارا .

وأخيرا اكتشفنا شقا يمكننا من خلاله ان نسمع - بوضوح - نباح الكلاب ، فوسعناه قدر ما نستطيع واستطعت أن أسبر غور داخله بقضيب ، وعندما سحبت القضيب كان على طرفه بعض من شعر الوشق الرمادى ، فنظرت بعذر داخل الشق فرأيت عيونه الخضراء (عيون الوشق) لامعة مفعمة حيوية ، فدفعت بالقضيب بأقصى قوتى نحو الحيوان فأحسست للحظات أنه قد تراجع . ان عملية القنص تجرى الآن تحت الأرض ، فالمعركة دائرة بين الكلاب والوشق الهارب .

وما هى الا لحظات أخرى حتى خرج الوشق من الجحر بقفزات طويلة من الطرف (المخرج) الذى يقف عنده الدوق الكبير ، فعاجله بطلقة ، فولى الحيوان العميق جرحه مذهولا

يستحب نفسه حتى اختبأ تحت صخرة كبيرة . ولحسن الحظ
فقد لاحظته الكلاب الشجاعة فى مخبئه ونجح الأمير تانكس
— بعد أن زحف فوق الصخرة — فى أن يوجه له طعنة بسكينه .
وهكذا تمددت أمامنا طريقتنا ، لقد كانت أننى جميلة لكنها
ضبابية ولم تكن ضيقة فى حجبها أو قوية فى بنيتها ،
كالوشق الذى اقتنصته .

وبعد هذا الانتصار كففنا عن البحث وعدنا للمعسكر
ومعنا الكلاب المنهكة التى أصيبت بجروح بعضها أصابته
شديدة ، وبعضها أصابته سطحية .

وقبل الظهر أصبح المناخ سيئاً فغطت سحب رمادية غير
داكنة كل السماء وتساقط مطر خفيف متقطع ، وهذا أمر
فادر الحدوث فى هذه المناطق ، واشتدت رياح الشمال فجعلت
الجو بارداً برودة تتناقض بشكل واضح مع الحرارة اللاهبة
فى اليوم السابق . وارتفع الموج فى البحيرة وأعلن مسئولو
القوارب استحالة مغادرة الجزيرة فى هذا الجو .

لقد أصبحنا هنا مثل روبنزون كروز معزولين عن العالم
فى هذه الجزيرة الصغيرة . وفى المعسكر راح فريق الصيد
يعرضون صيدهم فعلقوا على حبال الخيام وشقين وجلد
الذئب الذى تم اصطياده بالأمس والبجعة التى اصطادها
يوسنجر ونسرين .

وبعد أن تناولنا غداء ثرياً أعده لنا حسن الطباخ
الامتاز ، دحنا — بسعادة — خارج الخيام — واستمتعنا بحياة
البر (حياة الخيام) الشرقية الرائعة حتى اكتشفت فجأة أن
المسافة المستوية بين الصخرة الوسطى والساحل الشمالى
للجزيرة مغطاة بكل أنواع الطيور فقد استطعت — باستخدام
المنظار — أن أرى أسراباً من البلشون (مالك الحزين) والبجع
والتوارس وبينها بعض نسور النهر ، فزحفت على طول

الشاطيء بأفضل ما أستطيع لأصل الى سرب من الطيور يكاد
يحدون في حاله نوم كما كان بعضها يحتضن افراخه . لسمه
كدت اصل بالفعل اليها لكنني فزعت عندما رأيت بجعتين
تسبحان بالقرب وكأنهما تقومان بدور الحراسة لهذه الطيور .
وقد أصبحت مكشوفاً للرؤية من الجانبين ، وتنبهت الطيور
جميعاً . لقد صدمتني الطيور البارعة ونهضت فنبهت الطيور
الأخرى فخفقت جميعاً بأجنحتها وطارت متفرقة في كل
اتجاه .

ولم يبق الا طيور النورس الساذجة التي راحت تتقصي
سبب هذا الهياج ، ثم راحت تحلق فوقى صارخة ، وسعدت
كثيراً عندما اكتشفت بين الطيور الصغيرة نورساً ذا رأس
بنى كبير من النوارس الصيادة للسماك ، وكان - بالنسبة لى -
نوعاً جديداً ، فأطلقت طلقة ناجحة فهوى ووضعته فى
حقيبتى .

ولابد أن تكون هذه البقعة التي كانت تستريح فيها
أسراب الطيور الآن ذكراها مكاناً تتردد عليه هذه الطيور
كل يوم وتمكث فيها للراحة ، وذلك لأن أرض البقعة كلها
كانت مغطاة بطبقة سميكة بيضاء من زرق (بفتح الزاى
والراء) هذه الطيور (برازها) وتناثر فيها ريش طويل
هنا وهناك بالإضافة لبقايا كثيرة من أسماك متعفنة .

وعند عودتى للمعسكر قررنا مرة أخرى أن نقسم
الساحل بيننا ، استعداداً لمعركة صيد نخوضها بعد الظهر
وفى المساء .

وقد اخترت لنفسى البقعة التي اصطاد فيها الصديق
يوسنجر بجمته فى الصباح ، فجثمت بين الشجيرات وخلفى
الحمال العربى التابع لى . لقد كان مع كل واحد منا واحد
من هؤلاء الرفقاء (الحمالين) داكنى البشرة . ومهمتهم أن
يخضروا لك الطيور التي تسقط فى الماء ويساعدوك فى غير

دسب من الأعمال ، وما على المرء الا أن يحذر الدخول في
 أحاديث طويلة مع هؤلاء الناس الذين يحبون المال وان يحذر
 المبالغة في ابداء سروره عند كل نجاح يحققونه في عملهم ،
 هؤلاء فانهم سيبدعون في المساومة ويرفعون الثمن المطلوب
 بشكل دعوب . لقد أدرك هؤلاء الناس بنظرة مآكرة ازدياد
 حيناً لرياضة الصيد . لقد كان يجب على المرء أن يريهم
 العملة (النقود) قبل بدء الصيد كما أن شيئاً من الضغط
 على الطالب الودى يجعلهم ينزلون الى الماء (لجلب الطيور
 التي سقطت به) .

وكان على أن أنتظر - عبثاً - نصف ساعة قبل أن تتجه
 بجعة - رايتها على البعد - نحو مكمنى ، ولما أصبحت قريبة
 قريبا كافيا أطلقت طلقة مزدوجة (طلقتين بضغطة زناد
 واحدة) فأصابت الطائر واخترقت ريشه السميك ، وهبط
 الطائر بخفقات واهنة من جناحيه للماء وظل يسبح لدقائق
 قليلة ببطء ويدور حول نفسه ، وبدأ رأسه ومنقاره
 السميك يهبطان رويدا رويدا ثم ما لبثت الأمواج أن
 قلبته . لقد أسلمت البجعة الروح وهى مقلوبة على ظهرها .

ولم يفلح الاغراء كما لم يفلح التهديد فى حث العمال
 العربى المرافق لى على النزول للماء لأن البجعة كانت - وهذا
 حقيقى - على بعد غير قليل ، فعدت مسرعا للمعسكر لطلب
 مزيد من العون ، ولما عدت رأيت رجلا داكنا أصبح بالفعل
 قريبا من البجعة بين الأمواج ذات الزبد . وكم كانت
 سعادتى وفرحتى ! فان الدوق الكبير كان فى مكمن غير بعيد
 ولما رأى الطائر قد هوى ومات أرسل تابعه (العمال المرافق
 له) وكان سباحا ماهرا لاحتضاره .

وما هى الا دقائق حتى عاد العربى الشجاع سابعا وهو
 يسحب خلفه الطائر الثقيل من منقاره . وقد كنت سعيدا
 بأول بجعة أصلاها . لقد كانت بجعة ضخمة بشكل غير

عادى ، وفى ساعات المساء تجولت على شاطئ الجزيرة بحثا
عن الطيور الصغيرة .

ولما عم الظلام ولم نستطع تبين أهدافنا عدنا جميعا
لتناول العشاء ، وشهدت الأمسية عرضا آخر لما اقتنصناه ،
وسرعان ما استغرقنا فى النوم بعد يوم ممتع .

وكان علينا أن نجهد الى الجانب الآخر من الجزيرة
فى بكور الصباح التالى لنتنظر على لسان من الأرض مرور
أسراب الطيور الا أن الجو فى الليل - للأسف - كان سيئا ،
وقبل شروق الشمس زادت العاصفة وكشرت عن أنيابها حتى
ان المسئولين عن القوارب رفضوا الاقلاع بها ، ولم يكن
أماننا الا أن نقضى يوما آخر فى الجزيرة . ونمنا جميعا الى
وقت متأخر وذهبنا فى فترة قبل الظهر مع الكلاب نفتش بين
الصخور وذهب جهدنا هباء فلم نجد شقا واحدا ، أما بقية
اليوم فقطضيناه على شاطئ الجزيرة .

لقد كانت الطيور البحرية تبتعد عنا وتنبذنا بـ
الاقتراب من الجزيرة ، ولما اقترب المساء درت حول شاطئ
الجزيرة كله ، وأدركت بندقيتى على صخرة بـ
وعلى بعض طيور الشاطئ ، وأيضا على غراب .

وهذأت العاصفة وصفت السماء فابتهجنا بسا تبقي من
أشعة الشمس ، وبالأثر الجميل للضياء . ولم أشعر بالرضا
التام الا بعد أن رأيت فى اليوم التالى قارب صيد يأتى بهدوء
حول الطرف الغربى للجزيرة . لقد أتى راكبو القارب من
ناحية الغرب وكانوا فى طريقهم للأرض الزراعية ، فمروا
بالقرب من مكمنى .

لقد كان مستقلو القارب ذوى نظرات وحشية ويرتدون
 أسمالا بالية ، وغانوا يغنون اتناء تجديدهم اغانى مخصوصه
 معدة للحناء اثناء العمل ، وهى اغان كنبيه وعريبه " لقد نظرنا
 اليهم بدهشة ، فليس ثمة اثر للحياة البشريه على هذه الجزيرة
 من بعيد او قريب " وهناك ، خلف البحيرة صحراء ، فما الذى
 جاء بهذا القارب الوطنى الأفريقى الذى يستقله رجال سود
 الى ماء البحيرة ؟! ولم يكن هؤلاء الناس الطلييون أقل دهشة
 عندما راوئى . فقد كانت عيونهم تتساءل : اوربى أبيض
 على الجزيرة القاحلة ؟! ان ما نعرفه أن البجع وحده يسو
 قاطنها الوحيد . وبدأ العربى المرافق لى حوارا طويلا معهم
 لم أستنتج من معانيه الا ما يتعلق بالمناخ وكيفية العبور .

كانت، حصيلتنا من الصيد قليلة جدا هذا اليوم متارئة
 باليوم السابق " لقد بدت الجزيرة خالية ، وبعد أن تناولنا
 العشاء قام العرب المرافقون لنا ببيع بعض الألعاب النارية ، وهى
 ألعاب تشير البهجة فى نفوس كل الشرقيين ، وكانوا آنذاك
 ألعابهم هذه يشيرون ضجة مرهبة ، ولم ندعهم يستمرون طويلا
 فى ألعابهم هذه وجلبتهم تلك ، حتى نقضى الليل بهدوء .

وقبل طلوع نهار اليوم السادس والعشرين من الشهر
 غادرنا خيامنا ، وتناولنا افطارا سريعا ، وبدأنا يومنا ،
 فقد كان ماء البحيرة هادئا لذا ، فقد استطعنا عبور البحيرة
 الى الجانب الصحراوى ، وكانت الخطة تقضى أن ينتقل
 معسكرنا الى الجانب الآخر حيث الأرض الزراعية فى المساء .
 وقد مضى وقت طويل قبل أن يستقل رجالنا القوارب ، فكل
 أهل الشرق لا يتسمون بالدقة . لقد بدأ المسئولون عن
 استقلالنا القوارب وهم نصف نائمين ، لقد قلبوا الشاطئ
 رأسا على عقب وتسببوا فى فوضى كبيرة واستغرقت اعادة
 الأمور لنصابها وقتا .

وبعد برهة ركبنا ومعنا الكلاب ثلاثة قوارب وجسد
العرب المرافقون لنا تجديفهم الممتد وغنوا أغانيهم بصوت
أجش * وكانت الرائحة المنبعثة من القوارب لا تكاد تحتل
ولحسن الحظ فان البحيرة كانت تمتد أمامنا هادئة ناعمة ،
ففى مثل هذه القوارب التى يقودها عرب يداعب عيونهم
النعاس وفى مثل هذا الوقت حيث لم يغمر الكون الضياء -
كان يمكن أن نمر بتجارب محزنة خاصة اذا هبت عاصفة *
وبعد ساعة وصلنا الشاطئ عند رأس مكون من كتل حجرية
ممتد فى الماء ولا يربطه بالبر الرئيسى سوى ممشى (عنق)
ضيق جدا * ونزلنا الشاطئ وأرسلنا العرب بالقارب لعنق
الصخرة ، ومضى بعض الوقت قبل أن تنزع تمليماتنا
الواضحة والتى تتطلب نشاطا ، رفاقنا العرب داكنى البشرة
من صمتهم ، ولم يكن هناك وقت نضيعه فلا بد أن يكون
العبور من عند عنق الصخرة الموصل للبر الرئيسى آمنا ،
خاصة وقد بدأ الخط الأبيض يطل من الشرق مزيجا الخط
الأسود * *

ونظمنا أنفسنا على طول هذه الرقبة وكمننا خلف
الشجيرات الكثيفة ، فعند الصبح يبدأ مرور طيور الماء ، وكان
الباشون (مالك الحزين) أول ما أطل علينا ثم تلاه الفاق ،
ثم البط والجمع والنوارس وطيور الرمال الصغيرة - الصقور -
ونسور النهر ، وتوالت الطلقات على طول الخط (العنق)
وحظيت البجمات خاصة بطلقات لا تكاد تتوقف الا أن
المسافة كانت - لسوء الحظ - بعيدة جدا ، وشردت بجعتان
فقط الى المرتفعات المنخفضة فأطلق عليهما رجلان منا *
لقد اختفت النجوم للثو وأشرق الشمس الأفريقية الجميلة
وبدأنا نشعر بحرارة الشمس المشرقة فى سماء صافية *
ولما غادرنا أماكننا كانت أسراب الطيور قد اختفت * وحمل
كل واحد منا ما اصطاده وعدنا الى مكان رسونا غير المعد
جيبا ، عند الصخرة ، وهناك تجمعنا حيث كانت قواربنا
والعرب المرافقون لنا وعثمان فى حالة استعداد * *

لقد سقطت بجمعتان وعدده آخر من طيور الماء بالاضافة
ونسر بئس من أكالات الجيف كان يمر بين خط النار وكان
عليه أن ينجو بحياته *

وبعد أن استرحنا قليلا نهضنا ثانية لنبحث عن الصراند
بين اشجار الشاطئ ، وبدانا من عند اللسان (الرقبة) حيث
اشجار الطرفاء الكثيفة (١٩) غير كامله النمو والماب
والحشائش المنتشرة على الشاطئ الى الشمال والى الجنوب
من اللسان (الرقبة) انف الذكر * ولا يكاد الانسان يخترق
هذا الغطاء النباتى الكثيف - فى كثير من الأماكن - الا بشق
الأنفس رغم ضيق الشريط الذى يغطيه اذ قلما يزيد عرضه
عن عشر خطوات أو عشرين خطوة ، اذ تطنى الصحراء
العظيمة على الخضرة بتلالها ووديانها (الجافة) ورمالها
الناعمة ، وأحيانا بأحجارها ذوات الألوان المتعددة *

لقد بقى البارون ساورما ومعه الكلاب عند الموضع
الذى تبدأ فيه الشجيرات بالقرب من العنق انف الذكر * وتم
وضع البنادق الأخرى على مسافات متساوية ، وذلك وفقا
لخطته ، وقد اتخذت لنفسى أبعد المواقع فى بقعة كانت
الشجيرات تترك بينها فرجة ضيقة ، حيث كان المدى أمامى
مكشوفاً وآمناً لاطلاق النار بحرية على الساحل * وقد حددت
هذه البقعة الحدود الطبيعية للضربة الأولى *

وفى طريقنا خلال الرمال أتاحت لنا فرصة تفحص آثار
أقدام كثيرة ومختلفة * يبدو أن وحوشا تأتي من الصحراء
ليلا الى الشاطئ لتشرب وربما أيضا لتفاجىء الطيور المائية
النائمة * لقد كانت هناك آثار متتالية ويعلمو بعضها بعضا ،
فتلك آثار ضبع والى جوارها آثار ذئب بالاضافة لآثار ابن
أوى وثعلب الصحراء وهناك ما يشير الى السعالى الضخمة ،
وآثار عريضة لزحف الحيات كانت واضحة على الرمال

الناعمة * وما كدت أصل لموقعى حتى بدأت السلاطى
الصيد ، وان كان ذلك - والحق يقال - على مسافة بعيدة
منى ، لكن نباحها العالى اقترب من موقعى *

وفجأة ظهر بالقرب من الشاطئ الرملى حيوان طرير
رمادى خشن الوبر له راس مستدق وذيول طويل بسبع (سبعة)
الشكل Shapeless) * فاطلقت عليه النار من * انه
النمس ، وهو حيوان افريقى اصيل ، كما انه حيوان بسبع
جدا ، فلم ار له شبيها فى الشكل والعادات بين الحيوانات
الأوربية التى سبق لى اقتناصها * وسرعان ما تتبعته السلاطى *
وكان علينا ان نبحث عن مكنى آخر قريب بعد ان تسرت
الشجيرة التى كنا نكنى وراءها * ولم تنجح محاولتنا
الثانية - لسوء الحظ - فى القنص *

وقد دلتنا آثار أخفاف البعير فى الرمال على وجود قبيلة
بدوية فى المناطق المجاورة وسرعان ما رأينا عددا من مساكنها
ترعى تحت الشجيرات وسمعنا نباح كلابها ، ورأينا بعض
أفراد هذه القبيلة - على البعد - يقتربون من الخيام *
وقيل لى ان القبائل البدوية هنا بائسة جدا وان التعامل معها
لا يبعث على الارتياح فهى قبائل صحراوية خالصة وليس
لأحد سيطرة عليها البتة *

لقد انقسم فريق الصيد الآن الى قسمين ، وقد اقترحت
أنا والبارون ساورما ، الدوق الكبير أن نستقل أحد القوارب
المتاحة وأن نحاول الاقتراب من بعض البجع الذى كان يسبح
غير بعيد عن البر ، بينما كان على الرجال الآخرين أن ينشغلوا
بطيور الغراء السوداء black Coats التى تتردد بكثرة على
البوص (الغاب) النامى على ساحل البحيرة *

لقد ذهبت كل مناوراتنا سدى مع هذه البجعات العذرة
ولا حتى طائر البلشون الفضى الكبير الواقف على الساحل

كل ما اصطدناه فى النصف الأول من النهار فى أحد القوارب ،
وأرسلناها فى عهدة المسئول عن الصيد التابع لى الى الشاطئ
المقابل حيث كانت خيامنا (معسكرنا الجديد) قد نصبت
هناك .

لقد وافق فريق الصيد الآن على قضاء فترة راحة لمدة
ساعة ، وتناولنا افطارا متنقشما بالمرب من الشاطئ على
منحدر الراس الصخرى ، وكان افطارنا يتكون من اللحم
البارد والخبز وبعض الطعام المعب غير الجيد ، وشراب
ليمون غير طيب المذاق . وراحت جماعتنا تتسلى باقتناص
السحالى الصغيرة غريبة الشكل والتى للواحدة منها عرف أو
شئ كالعرف فوق ظهرها ، وكانت الحيات كامنة تحت
الصخور بأعداد غير قليلة .

ولم تكن فترة الراحة هذه كافية لانعاشنا فالشمس
كانت تلقى بأشعتها الحارقة بشكل مرعب على المنحدر
الصخرى وكانت الأرض ملتهبة أما الهواء فكان رسول
الحرارة التى تسفع جلودنا . لقد كان أشد أيام رحلتنا
حرارة ، وهو أشد حرارة بكثير من أشد أيام صيفنا الأوربى
حرارة . وسرعان ما نهضنا مرة أخرى وسرنا تحت الشجيرات
بالقرب من الساحل فى الاتجاه الشمالى . لقد كان السير على
رمال الصحراء الحارقة التى تعكس الحرارة الشديدة أمرا
لا يمكن احتماله الا بشق الأنفس . ومرة أخرى أحطنا
بالشجيرات فى فترات محددة وبدأنا رياضة الصيد المحببة
للنفوس . وعلى أية حال فان فريق الصيد بدا غير مستعد
وكانت المطاردة غير منتظمة فكنا نتقهقر ونتقدم مرات عدا .
وبعد أن توقفنا عند الخليج لوقت قصير ظهر نمس أمام
الدوق الكبير فقلب الحيوان القبيح لكنه سرعان ما انسحب
بين الشجيرات فتعقبته الكلاب ودارت بينها وبينه معركة
شرسة ، واشتبك كلب (من نوع داشهوند) ضخيم طويل

الأرجل مع النمس ، وانفض الغريمان أحدهما عن الآخر بصعوبة فائقة بعد تدخل بعض الرجال فأصاب يد أحدهما عضة من الكلب وأصاب الآخر عضة من النمس .

وفى هذه الأثناء مرت كثير من طيور الغاق والبلشون بالقرب منى على طول الشاطئ لكننى لم أطلق النار عليها ، انتظارا للغنيمه الأكبر (النمس) . ولما كانت فترة يمد الظهيرة قد حلت فقد قررنا أن نبدأ فى التجديف عائدين الى الجانب الآخر وأن نتخذ فى طريق العودة خطا مباشرا مستقيما . لقد أصبح الهواء أبرد وكان بإمكاننا الاستمتاع الآن بأن نلقى نظرة على مياه البحيرة ، وأن نلقى نظرة شامله على الصحراء ، فالظروف الآن مواتية أكثر مما كان عليه الحال فى الصباح الباكر .

وكان مسئولو القوارب يتمتعون بروح معنوية عالية ، فكانوا يخلعون ملابسهم ويقدفون بأنفسهم فى الماء بين صياح طيور الماء واضطراب صفارها غيرالقادرة على الهرب ، ثم يسبحون عائدين ليلحقوا بالقوارب ، وقد قدم كل واحد منهم من اتجاه مختلف ، وكانت لهذه المباراة ميزة عملية لنا فقد جعلت المجدفين يجدفون بطريقة أسرع .

ووصلنا بعد رحلة استغرقت الساعتين ، وبعد أن مررنا بأدغال الصفصاف على الساحل الرمل الذى اقمنا عليه خيامنا ، وجدنا كل شئ جاهزا ومنظما بطريقة مريحة . لقد اختاروا هذه البقعة بعناية فهذا الساحل الجاف يفصل البحيرة عن المستنقع (المنطقة السبخة) . ولأن العشاء لم يكن جاهزا فقد ذهب بعضنا مباشرة للمستنقع (المنطقة السيخة) الذى يقع بين معسكرنا وأول الحقول المزروعة .

وفى هذه المنطقة التى يغطيها البوص وأشجار الصفصاف والأعشاب والنخث (بضم الخاء) (٢١) البنى كرية الرائحة ،

يجد المرء حشودا من طيور دجاجات الأرض والشناقب (المفرد : شنقب بضم الشين وتسكين النون) - البط ايضا وتوعين من طيور الزقزاق ، وراحت الضفادع تنفض هنا وهناك بأعداد كبيرة ، وكانت البقعة كلها تعج بالحشرات السامة .

وأطلقنا كثيرا من الطلقات على أنواع مختلفة من طيور المستنقعات وانسحبنا من هذا المكان المعبأ بجو المستنقعات الجالب للحمى ، قبل ظهور الشفق ، وكان منظر الشمس الجميل حال غروبها ، وطعام العشاء الجيد هما خير نهاية لهذا اليوم المثير ، وخلصنا للراحة في معسكرنا .

وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر بدأنا مبكرا بهدف ممارسة الصيد طوال طريق عودتنا الى محطة (أبو سكر) .

في البداية سرنا عبر الأرض السبخة واصطدنا بعض الشناقب وأنواع أخرى من الطيور ، وعند عبورنا لحقل كان به عدد من طيور مالك الحزين (أبو قردان ؟) وطيور البويت (أبو طيط) ، أصابت طلقاتنا أهدافها ووصلنا لمنطقة التلال الرملية التي تغطيها حشائش قصيرة وبعض الشجيرات التي تفصل المستنقع (الأرض السبخة) عن الأراضي الزراعية . وطاردت الكلاب بعض الأرانب البرية ، وكان من حظي أنا وأحد المرافقين لنا أن يصطاد كل منا واحدة من هذه المخلوقات المضحكة droll .

لقد كان الأرنب الذي اصطدته أرنبا صحراويا حقيقيا ، اذ كان ضئيلا هزيلا طويل السيقان ، لونه كلون الأيائل وكانت أذناه طويلتين مضحكيتين تكادان تكونان شفافتين . وبينما كنا نطارد الأرنيين ، أطلقنا النار أيضا على أحد

العواسق (المفرد عوسق وهو نوع من الصقور) وبمض
الحمام .

واسترحنا لنصف ساعة عند المنطقة الفاصلة بين
الأرض الزراعية ، وأرض الشجيرات البرية ، وتناولت
أفطارا من طعام بارد وضعه أمامنا بعض العرب .

وبعد أن تناولنا وجبتنا غير المترفة تابعنا طريقنا عبر
الحقول والقنوات واختلطنا بالفلاحين المجهدين الدين
استندمناهم لاثارة الطرائد ، وتبعنا الأطفال والنساء
وتركوا الجواميس والمحاريث طمعا في البقشيش . ولمحنا
— غير بعيد — حقول قصب السكر الواسعة لازالت دون حصاد
رغم بدء موسمه ، فأسرعنا اليها يحدونا الأمل .

وناقشنا مشروع الصيد في هذه الحقول بينما كنا نسير
على حافتي قناة جافة عريضة .

ولما وصلنا للبقعة (حقل قصب السكر) وضعنا البنادق،
وانتظر الدوق الكبير في ركن بجوار القناة أما انا وهويوز
Hoyos فوقنا عند الجانب الذي يعد الحقل من ناحية
القناة وأحاط الآخرون بكل نواحي الحقل . ومما يؤسف له
أن عدد البنادق كان قليلا جدا كما كانت المسافات بين
القناصين بعيدة . وبالقرب منا كانت الجواميس والجمال
تحملق فينا . . . ودخل مثيرو الطرائد بين أعواد القصب
بصعوبة وراحوا يصيحون صيحات مفزعة ، وفي هذه الأثناء
أطلق جارى النار في الحقل ناحية اليمين ، ومن ثم قفز ذئب
ضخم بينى وبينه ، وأسرع بخطى فزعة عبر القناة ، ورغم
أن المسافة كانت بعيدة فقد جريت عبر القناة وأطلقت
بندقيتى ذات الماسورتين اثر الحيوان الهارب . فأسرع يعبر
الحقول ورجله اليمنى الخلفية مجروحة .

وسرعان ما ظهر مثيرو الطرائد ، وظهر من بين أعواد القصب الصفراء ، الفلاحون الداكنون ينظرون بدهشة شديدة بل ان البربر Moors فعلوا الشيء نفسه ، وكان عدد هؤلاء البربر كبيرا ، وقد أقبلوا الواحد اثر الآخر ، وفي يد كل منهم عود قصب يقضم منه ويمتصه * ورحنا نثير الطرائد فى الحقل للمرة الثانية *

وفى هذه المرة أطلق جارى طلقة نحو اليسار فقتل ذئبا كبيرا بطلقته الواحدة هذه * وسرعان ما سمعت صوت قعقة البندقية القديمة (الرفل) التى يحملها أحد الرجال على الجانب الأيسر * لقد أصاب ذئبا لكن أصابته لم تكن مميتة فأصابته الطلقة الثانية بجرح بالغ ، فغادر خارجا من بين أعواد القصب وتلقى الطلقة الثالثة فى الخلاء *

وبعد ثلاث دقائق قتل جارى الواقف عن يمينى ذئبا آخر كبير الحجم بطلقة واحدة ، وبعد لحظة وثب ذئب آخر بينى وبينه وعبر القناة وولى ، فأطلقت أنا وجارى النار معا فى اثره ورأيناه يجر نفسه بين الجاموس نحو حقل قمح ، وقد كانت أصابته بالغة *

ولما ظهر مثيرو الطرائد من مكانهم تركناهم يخترقون الحقل للمرة الثالثة ، وسرعان ما أدركت أن طريدة ما ستمر فى طريقى ، وبالفعل فقد مر أمامى ذئب كبير وسيم يتحرك بسرعة وسط أعواد القصب ، فأطلقت عليه فكان من حسن حظى أن أصيب وهوى * وبعد ذلك بدقائق قليلة أطلق جارى الواقف عن يسار طلقة على ذئب آخر فجرحته جرحا قاسيا فزحف بصعوبة نحو حقل فول مجاور * وهرب ذئبان دون أن يلحقهما أذى ، اذ لم تطلقا طلقات البنادق *

وأطلق أحد الرجال طلقة على نمس فجرحه جرحا غائرا ، لكنه زحف واختبأ بين أعواد القصب الكثيفة ، وذهبت جهودنا

سدى فى البحث عن الذئاب الجريجة على مدى ما تصل اليه
عيوننا •

لقد ذهبنا الآن الى الجانب الآخر لحقل القصب حيث
كان مترجمنا قد أمر باعداد خيول الركوب والحمير لتلادون
فى انتظارنا • ووضعنا الذئاب التى اصطدناها بعناية فوق
حمار ، وتحركت قافلتنا مرة أخرى • وتفرق مشيرو الطرائد
من مكائهم فى اتجاهات مختلفة ولم يبق معنا الا الحماران
والمرشدون (الأدلاء) •

وبدا أحد الحمارين يمارس فى أوقات فراغه مهنة
الحاوى ، وهى مهنة محببة للمصريين ، فقد كان يحتفظ
بشعبانين كبيرين فى كيس جلدى كان يخبئه تحت ثوبه وكان
قد أمسك بهما بالقرب من البحيرة بالأمس • • ولا شك أنه
ابتدع طريقة لجعلهما يتنفسان • ومع ذلك فقد بدا كأنهما
ماتا • وفى غضون دقائق قليلة فان هذين الشعبانين البائسين
اللذين نزعنا أنيابهما - قد استعادا نشاطهما ، وزحفا
عائدين للكيس الجلدى البنى • وكنا نسير ببطء وكانت
الكلاب (من نوع الداشهد) تجرى بجوار الخيول ، لكن
عندما اقتربنا من قرية صغيرة بأسة ليس فيها ما يسترعى
الانتباه الا بعض النخيل وبعض أشجار الجميز • اختفت
الكلاب فى حقل فول مربع الشكل ، وعلى الفور بدأنا عملية
صيد متسمة بالحيوية • لقد ترجلنا عن خيولنا وأحطنا
بالحقل الذى كان يمكن أن نغطيه بطلقاتنا من جانب الى
جانب ، واستمرت عملية الصيد فى هذا الحقل الضيق زهاء
ربع الساعة ، وأطل نمسان بالقرب من بنادقنا لكننا أحجمنا
عن اطلاق النار مخافة أن يصيب أحدا جاره وأدرك النمسان
الموقف فلم يفادرا الحقل الآمن رغم مطاردة الكلاب • ولأن
الوقت يمضى سريعا فقد كان علينا أن نستدعى الكلاب
ونستمر فى مسيرنا دون أن نحقق أهدافنا فى الصيد ، وأدى

بنا الطريق الى تجاوز خط السكك الحديدية الذى يرتبط بين
حقول القصب ومصنع السكر فى (أبو سكر) ، وأوقفنا
قطارا عابرا ودخلنا عربة فارغة ، وبهذه الطريقة وصلنا
(أبو سكر) بسرعة *

وركب العرب المصاحبون لنا بمهارة وسرعة لا تصدق
بين العربات * ولما كان لدينا متسع من الوقت فقد قررنا ان
نثير الطرائد فى حقول قصب السكر الذى كنا قد اصعدنا
فيه أول يوم ، وذلك على سبيل التجربة ، واحطنا بالحقول
وجمعنا اكبر عدد من سائقي الدواب والسياس ، وما كنا
نبدأ العمل حتى قفز ذئب بجوار احدى البنادق التى كانت
قائمة فى أحد الأركان ولم يستطع جارى اطلاق النار لقرب
الذئب منه ومخافة اصابة أحد الحضور ، ولما استعد للاطلاق
كان الذئب قد ولى بعيدا *

وما هى الا ثوان حتى أطلق أحد رجالنا النار على ذئب
وسيم جدا * لقد كان اضخم من كل الذئاب التى سبق لنا
قتلها ، وقبل أن يخرج مثيرو الطرائد كانت البنادق قد
أصاب ذئبين ، وضاعت منا احدى دجاجات الارض
a wood cock (٢٢) *

لقد غادرنا هذا الحقول الآن وكان حصادنا منه من
الطرائد هذه المرة أكثر مما كان عليه الحال فى المرة
السابقة * وعلى المحطة ، بدأ حصادنا من الطرائد غير عادى :
سنة ذئب أحدثنا بها جروحا فى يوم واحد ، وكان لدينا
ما يجعلنا نرضى عن حصاد رحلتنا من الصيد فى الفيوم ، فقد
كان هذا الحصاد يتمثل فى وشقين (الوشق حيوان من فصيلة
السنانير وهو أصغر من النمر) وسبعة ذئاب ونمسين وأرنبيين
بريين ، وأربع بجعات ونسرين من نسور النهر ، وأحد صقور
الجيف ونسر أفريقى جارح ، ومائة وسبعين طائرا صغيرا كان
من بينها أنواع غريبة *

وتناولنا عشاءنا فى صالة الانتظار ، وكان المساء وقد
هبط الليل ووقفنا مستعدين فوضعت حاجياتنا فى الحافلات
وغادرنا (أبو سكر) وبقي معنا الاخوان ساورما والأمير
تاكسس Taxis طوال ساعتين ثم فارقانا عند وصولنا
لوادى النيل *

وبعد وداع حار ركبنا الباخرة متجهين جنوبا الى أسيوط
الهدف التالى لرحلتنا النيلية الممتعة وخذنا للراحة فى
الحافلات وسرعان ما وجدنا أن النوم هو أفضل مكافأة بعد
الجهد الذى بذلناه *

تعليقات المترجم عن الفصل الأول

(١) تريست أو تريستا - الآن - ضمن الحدود الإيطالية فى أقصى الشمال الشرقى لإيطاليا ، قريبة من حدود ما كان يعرف بيوغسلافيا ، لكن الأمور لم تكن على هذا النحو وقت قيام الأرشيديوقى رودلف برحلته ، ومن المفيد هنا استعراض وضع تريست هذه للمقارئ الذى يقرأ الرحلة من منظور تاريخى ، فقد استعادت النمسا سيطرتها على تريست والساحل العلباسى بل وامتدت سيطرتها على معظم إيطاليا • بعد مؤتمر فينا الشهير ١٨١٥ • كل ذلك بمباركة أوروبية ، رغبة فى سيادة المبادئ المحافظة ، ورغبة فى إبعاد فرنسا عن التأثير فى الساحة الأوروبية ، وكانت رغبة الإيطاليين فى استعادة تريست - بالإضافة لأسباب أخرى • أحد أسباب انضمام إيطاليا للحلفاء ضد دولتى الوسط (ألمانيا والنمسا) فى الحرب العالمية الأولى • وقد قام رودلف برحلته هذه فى الفترة التى يعتبرها المؤرخون ممثلة للتحالفات والتحالفات المضادة التى مهدت للحرب العالمية الأولى •

(٢) وقت القيام بالرحلة كانت النمسا والمجر تشكلان كيانا سياسيا واحدا باسم مملكة النمسا والمجر أو المملكة الثنائية ، وكان نظامها يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر دستورها وإدارتها الذاتية ، أما شئون الدفاع والسياسة الخارجية فكانت من اختصاص الادارة الامبراطورية فى فينا ، وكانت المملكة الثنائية تضم عديدا من الأقليات القومية النشطة كالتيشيك والبولنديين والسلاف والكروات والطلبات ، وظل هذا الكيان السياسى قائما فى الفترة من ١٨٦٧ الى ١٩١٨ • وهذه المعلومة تقس كثيرا من العبارات الواردة فى ثنايا الرحلة •

(٣) كما سيتضح من سياق الرحلة ، فان الأمير رودلف كان يعتبر نفسه - سواء فى مصر أو فى القدس فى أرض مقدسة ، وقد وصف مصر فى أكثر من مكان فى رحلته هذه بأنها أرض مقدسة ، كما وصفها لاعتبارات دينية بأنها أرض الرب ، فلا غرابة إذن أن يصف نفسه ومن معه بأنهم حجاج •

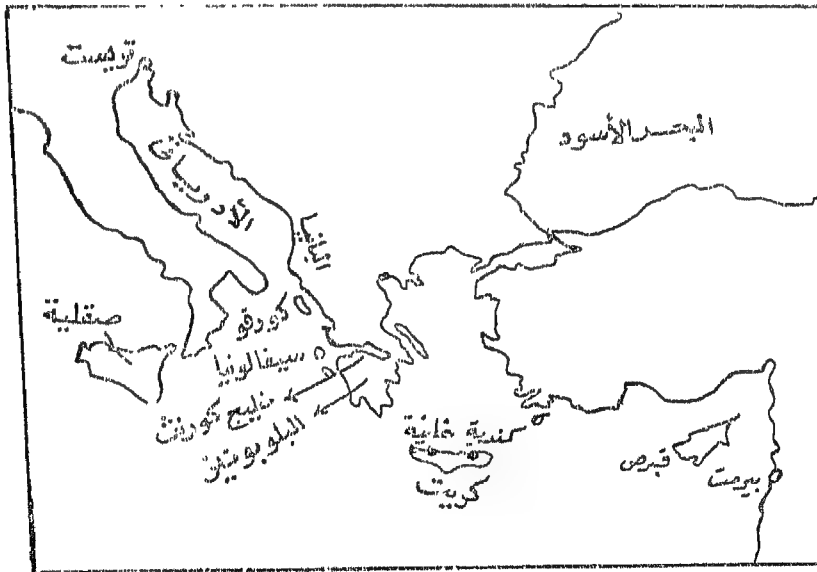
(٤) هكذا بالنص ، وهو تعبير غير دقيق ، والمقصود أن البرد كان قارسا ، وأن درجة الحرارة قد بلغت عشرين درجة مئوية •

(٥) اشارة الى رحلة قام بها فى غرب أوروبا ، والمحيط المقصود هنا هو الأطلنطى •

(٦) فى مواجهة الساحل الألبانى حاليا ، لكنها ذات طابع يونانى •
انظر الخريطة •

(٧) اشارة للصراع القديم على البانيا التى كانت تطمع النمسا فى ضمها ، ويطمع الصرب الذين يؤيدهم الروس فى اجتياحها وجعلها جزءا من صربيا الكبرى • ترى هل اختلفت التحالفات والتحالفات المضادة أزام البلقان فى القرن التاسع عشر عما هى عليه الآن ؟ أيهم المانيا والنمسا قيام الصرب الكبرى المتحالفة تقليديا مع روسيا ؟ - (المترجم) •

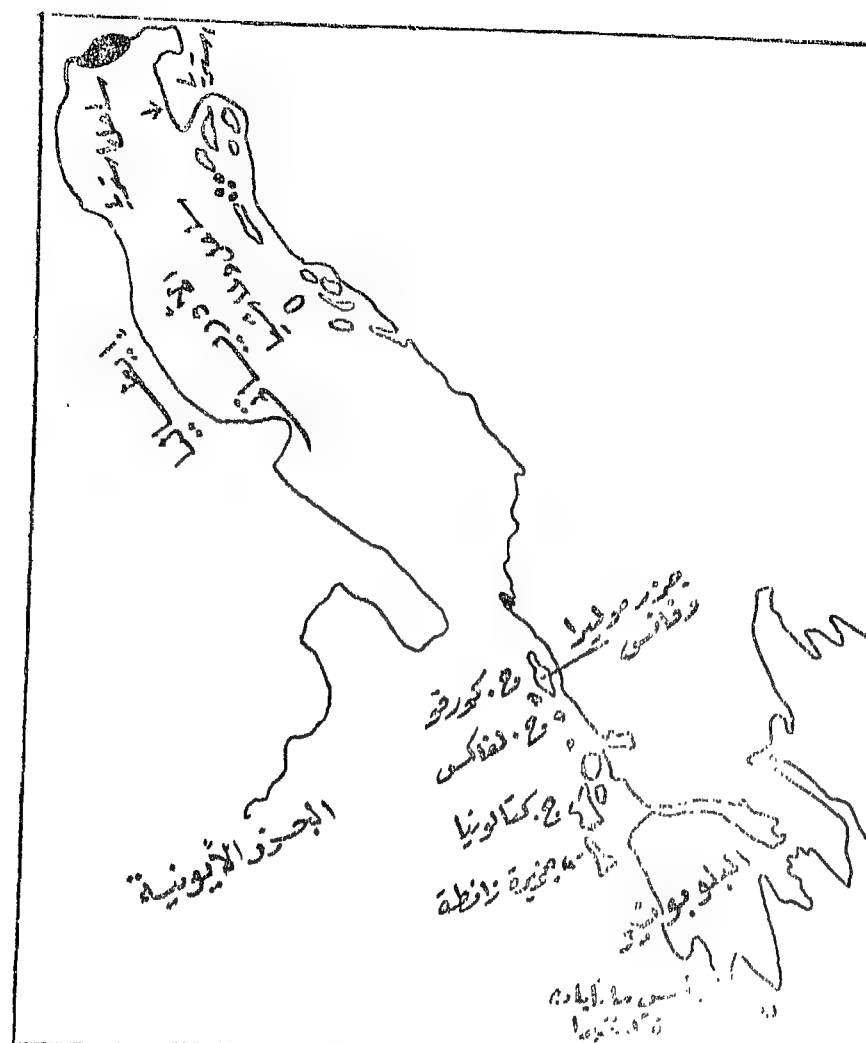
(٨) تشير الخريطة التالية لكثير من المعالم التى اشار اليها الأمير ردولف فى هذا الفصل :



(٩) أشرنا للصراع على البانيا فى حاشية سابقة - انظر أيضا مقدمة الترجمة العربية •

(١٠) السرو Syppresses - كما ورد فى معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : شجر حرجى دائم الخضرة هرمى وشكل ، وهو على أنواع •

(١١) انظر الخريطة التفصيلية التالية :



(١٢) انظر الخريطة بالحاشية السابقة .

(١٣) هو الشاعر الاغريقى العظيم هوميروس الذى نسبت اليه الاللياذة والوديسه ، وقد أثرت أشعاره فى آداب العالم كله ، عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد . ويتشكل الباحثون فى نسبة الوديسية اليه

سيد أحمد الناصري : الاغريق تاريخهم وحضارتهم " مطبعة
جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٨٤ .

(١٤) أهمها : كورفو وزانطة وكتالونيا . انظر الخريطة
حاشية ١١ .

(١٥) بطلها أوديسيوس ويسميه الرومان أوليكسيس Ulixes لمزيد
من الاطلاع يمكن الرجوع الى :

- أمين سلامة : معجم الاعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية .
- صقر خفاجة : هوميروس ، ١٩٥٦ .
- لطفى عبد الوهاب يحيى : هوميروس ، تاريخ حياة ، ١٩٦٨ .

(١٦) ديانا ، وبالاغريقية أرتميس ، يطلق عليها هى واختها ميترقا
« العذراوان البيضاران » سلحها جوبيتر بقوس وسهام وجعلها ملكة
الغابات وجعل لها حاشدية من ستين حورية » ، ألزمتها ديانا عفة كاملة ،
وكان الصيد هو تسلية ديانا المفضلة

انظر على سبيل المثال :

كوملان ، ب : الأساطير الاغريقية والرومانية ، ترجمة أحمد رضا
محمد رضا (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢) ، ص ٣٨ .

(١٧) راجع مقدمة المترجم .

(١٨) اشارة لازدهار الحضارة أيام العظمة اليونانية القديمة .

(١٩) تقول الأسطورة الاغريقية ان اسكليبيوس تدرب حتى أصبح
طبيباً ماهراً قادراً على احياء الموتى ، فأرسل زوس صاعقة قتلتته ثم عاد
فعفا عنه ورفعته مرة أخرى لمرتبة الآلهة وقامت عبادة اسكليبيوس هذا فى
بعض مناطق اليونان ، وكان الشعبان الملتف حول قائم من الرموز التى
تشير اليه (الرمز نفسه لازال مستخدماً للإشارة للطب والدواء ، ونجده
معلقاً فى الصيدليات) وكان الكلب أيضاً مقدساً فى ديانتته ، انتقلت
عبادته للرومان .

انظر : أمين سلامة : معجم الاعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية .

(٢٠) بطل الأوديسة - انظر حاشية ١٣ و ١٥ .

(٢١) رب البحر فى الأساطير الاغريقية والرومانية وله سلطان على
الرياح . . .

أمين سلامة : مرجع سبق ذكره .

(٢٢) من الفصيلة البلشونية ورتبته طويل الساق ، والاسم الشائع فى مصر (أبو قردان) وهو أبيض طويل الساق ويسمى صديق الفلاح ، وتمة أنواع أخرى بعضها رمادى وبعضها حمراء - (المترجم) .

(٢٣) Cormorant غاق ، والمؤنث غاقة . طير مائى من الفصيلة البجعية ورتبته كفيات القدم ، ومن أسمائه أيضا Sea raven وCool goose .
عن معجم الشهابى - (المترجم) .

(٢٤) الغواص diver طائر له قدرة على النخوص المحدود فى الماء . صغير الحجم . يرى بكثرة محلقا على ضفاف النيل - (المترجم) .

(٢٥) Sea mew ويسمى أيضا زمج الماء (بتشديد الميم وفتحها) ويطير أسرابا فوق البحار والشواطىء وريشه طويل ، ومن رتبة كفيات القدم .

راجع مادة Sea-gull بمعجم الشهابى .- (المترجم) .

(٢٦) هذه العادة (توجيه الوجه صوب الوطن عندما يحرز المسرء انتصارا أو يقوم بعمل مشرف) لازالت فيما يبدو موجودة بوضوح عند بعض الشعوب الأوروبية ، وكان الشخص يهدى - بتصرفه هذا - انتصاره أو عمله الى بنى وطنه ، ومنذ عدة أعوام رأيت بعض الشباب الانجليز والألمان (كان عددهم ثلاثة - انجليزيان وألماني) فى منطقة الأهرام ، ولما أفلح الألماني فى تسلق بعض صخور الهرم ، راح ينظر بعيدا موليا ظهره لزميليه (الانجليزيين) ، ولما سألت سؤالا عاجزا : لأى شىء ينظر ؟ قال الانجليزيان ومما يضحكان : الى ألمانيا To Germany . ولم أدرك وقتها الأبعاد الكاملة لهذا التصرف . ومن أغرب ما رأيت فى هذا الأمر وتحققت منه تماما أن بعض الإيرانيين فى منطقة الخليج ، بعد أن يؤدوا صلواتهم ووجوههم صوب الكعبة المشرفة ، يغيرون اتجاه وجوههم ليجعلوها صوب فارس (إيران) وهم يقولون الدعاء أو التسبيح ، فكانهم يصلون صوب الكعبة (المشرفة) ويدعون ويسبحون صوب إيران ، كما لاحظت أنهم يفعلون الشىء نفسه (تولية الوجه صوب بلدهم) فى مواقف مختلفة ، ومن المؤكد أنهم فى شهر رمضان المبارك لا يفطرون الا اذا انطلق مدفع الافطار فى إيران ، وليس فى البلد الذى يقيمون فيه رغم الفسارق الزمنى . حقا أن الرحلات منبع لا ينضب للعلم والمعرفة - (المترجم) .

(٢٧) من الجزر الأيونية - انظر الخريطة ، حاشية ١١ .

(٢٨) انظر الخريطة .

(٢٩) انظر الخريطة .

(٣٠) يطلق الاسم على الساحل الشمالى الشرقى للبحر الأدري
فيما بين الساحل الألبانى وتريست بما فى ذلك ساحل استيريا . وقد
هذا الساحل الأخير حتى تريست . انظر الخريطة .

(٣١) ما بين القوسين توضيح من المترجم - عن معجم المورد
(٣٢) راجع مادة Lepus فى معجم الشهابى لمصطلحات الـ
الزراعية لمعرفة الفرق بين مصطلح Hare وتعنى الأرنب الوحـ
و Lepus وتعنى الأرنب البرى . فيما يرى صاحب المعجم
(المترجم)

(٣٣) خطأ مطبعى غالبا ، والصحيح الشرقى - (المترجم) .
(٣٤) فى كريت ، وثمة ميناء بالاسم نفسه (كانيا) أو كاند
انظر الخريطة - حاشية ١١ .

(٣٥) الإشارة الى مصر المقدسة هى ايمان ضمنى بما ورد
الكتاب المسيحى المقدس - وصاحب الرحلة مسيحى - فقد ورد فى
التكوين (جنة الرب أرض مصر) ، وفى السفر نفسه (نهرك يا
الذيل . هو النهر الثانى من أنهار الجنة) وثمة حديث عن الرسول
(صلى الله عليه وسلم) لا يبعد فى معناه عن هذا النص الانجـ
الخير - (المترجم) .

تعليقات المترجم

عن الفصل الثانى

(١) الساحل المصرى الشمالى يختلف الآن - كما يلاحظ القارئ - عن الوصف الذى يرد فى كتب الرحالة خاصة ، الذين زاروا مصر منذ عصور بعيدة نسبيا ، ويرجع ذلك الى أن مكونات الساحل الشمالى ترجع فى الاساس الى طمى النيل ومكونات العصر الجيولوجى الحديث (البلايستوسين) ، فمدينة دمياط على سبيل المثال عندما تم انشاؤها كميناء كانت تطل على ساحل البحر المتوسط مباشرة ، اما الآن فيبذلها وبين الساحل عدة كيلومترات بحيث يمكن القول أن دمياط نفسها لم تعد ميناء ، ويرجع ذلك الى أن طمى النيل الذى كان يجلبه النهر قبل انشاء السد العالى كان يزيد من امتداد الدلتا فى البحر أربعة أمثارات فى السنة على الأقل ، وذلك فى المتوسط ، ومن هنا نشأت على نهر خاص عدة رؤوس طينية واضحة على خريطة مصر أهمها رأس دمياط ، ورأس رشيد ورأس بلطيم ، وقد طغى طمى النيل فى مواضع كثيرة فى ساحل مصر الشمالى خاصة بين بورسعيد والاسكندرية على المكونات الرملية ، فالقادم الى مصر هذه الأيام عن طريق البحر المتوسط ، لا تقابله هذه الكثبان الرملية فى المنطقة الأنف ذكرها للسبب الذى ذكرناه سابقا والمتوسع الزراعى واستصلاح الأراضى ولامتداد البنیان العمرانى • وليس أدل على تغير المسرح الجغرافى للأحداث التاريخية من أن فروع النيل فى الدلتا كانت سبعة أفرع فى التاريخ القديم، تقلصت الى ثلاثة أفرع فى العصر الاسلامى، وهى الآن فرعان كما هو معروف ، أما بقية الشبكة المائية فهى جهد بشرى ، وقد تقلص عدد الأفرع بسبب انسدادها أو امتلائها بطمى النيل • كيف يمكن لمباحث تاريخى أن يلم بالأحداث فى العصور القديمة والتوسيط ، بل والحديثة دون معرفة التغيرات الجغرافية أو المسرح الجغرافى التى تجرى فوقه الأحداث غير منفصلة عنه ؟ - (المترجم) •

انظر على سبيل المثال :

محمد عوض محمد : نهر النيل • القاهرة ، ١٩٦٢ •

محمد حجازى محمد : نحو دراسة فى جغرافية مصر ، القاهرة ،

١٩٨٦ •

محمد صفى الدين ومحمد صبحى عبد الحكيم : دراسات فى جغرافية

مصر • القاهرة ، ١٩٥٩ •

(٢) وقد يكون المقصود نائب السلطان (الخديو) .

(٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(٤) استخدام الأمير ردولف أكثر من مصطلح تشير جميعا للشرق وكان له استخدام خاص بها ، وقد يخلف عن المفاهيم السائدة لدى المؤرخين .

ونبدأ بالمفاهيم السائدة لدى المؤرخين ، اذ يرون ان مصطلح الشرق الأدنى Levant إلى مصطلح الشرق الأوسط من حيث المساحة ، وكان المصطلح (الشرق الأدنى) يطلق على البلاد الواقعة تحت الحكم العثماني عندما كانت الدولة العثمانية في ذروة قوتها واتساعها ، ففي القرن السادس عشر كانت تمتد - احيانا - من مشارف فيينا الى القرم ومن البحر الأسود الى العراق ومسقط وعدن وشبه الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر الشريية ومصر والشام وليبيا وتونس الجزائر .

اما مصطلح الشرق الأوسط فيضم الى جانب الدول العربية ايران وتركيا (الحالية) وكريت وقبرص والصومال واثيوبيا وبأخسنان . (انظر على سبيل المثال كتابات عبد العزيز نوار عن تاريخ العالم العربي) ، اما أرنولد توينبي فقد قسم الشرق الأدنى من الناحية الحضارية - فيما يقول محمد أنيس في كتابه عن الدولة العثمانية والشرق العربي - الى ما يسميه مناطق حضارة الشرق الأدنى Near eastern civilization ويقصد بها الحضارة اليونانية ، وحضارة الشرق الأوسط ويقصد بها المناطق التي ظلتها الحضارة الاسلامية في الشرق الأدنى . ويقول محمد أنيس في مطلع كتابه آنف الذكر : ان الأوربيين يقصدون بالشرق الأدنى الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

ولكن المتصفح لهذه المرحلة يلاحظ أن ردولف لا يدخل اليونان ضمن مصطلح الشرق الأدنى Levant كما لم يدخل أهلها اليونانيين ضمن مصطلحه Levantine ، والشئ نفسه فعله بالنسبة للأتراك ، وقد يكون النص عليهم (الأتراك) من باب التأكيد عليهم والاهتمام بهم لا لعزلهم عن مفهوم الشرق الأدنى :

(٥) كانت إمبراطورية النمسا والمجر تضم العديد من القوميات والأجناس ، وقد حاقت بها الهزائم في القرن التاسع عشر على يد الحلف الايطالي الفرنسي وعلى يد بروسيا سنة ١٨٦٦ ، فاضطرت الى تعديل أوضاعها بما عرف بالمملكة الثنائية ، وكان نظام المملكة الثنائية يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر حكما ذاتيا أو ادارة ذاتية ، كما أن لكل

منها دستوره ، وتتولى الادارة المركزية (الامبراطورية) شئون الدفء وشئون السياسة الخارجية • وكانت هذه المملكة التناثية تبسط سيطرتها على عديد من الأجناس والقوميات كالتشييك والبولنديين والسلاف والكروات والايطاليين - وهذا يفسر لنا لماذا لم يعتبر ردولف كل هؤلاء (فيما عدا الطليان) ضمن مفهوم الشرق الأدنى ، كما يفسر لنا لماذا أقدم أهل ساحل دلماشيا لاستقباله عندما قدم الى مصر •

(٦) امبراطورية النمسا والمجر فى الفترة التى قام بها ردولف برحلته هو هرسوا جوريب الذى يقول عنه المورخ سسر : « ••• حصل الحبيب الطويل (١٨٤٨ - ١٩١٧) الذى اسوى فيها فرنسيس جوريب ، على عرشه بعينه ، ظل يكدر ويداب فى محتبه ، ويوسع ويقرا ، من الصباح الباكر الى عتمة الليل : رجل مفجوع القلب مكلوم السواد - هذا اذا كان فى مقدوره أن يشعر بثقل الفجيعة • فقد اغتالت زوجته يد قاتل زعيم ، وازهى ابنه الوحيد روحه بيده ، والحق ابن أخيه ووريث عرشه السار بأسرته بقران لم يفتقره له الامبراطور ، وذلك بزواجه من سيدة كلف بها ، تدنو مرتبتها الاجتماعية من منزلة الامارة •

لكن سواء أكانت كل مقدرة لفرنسيس (فرانسوا) جوزيف على الشعور والاحساس قد نضب معينها وجف ماؤها نفسه أم لا شعور به فى دخيلته بعظمة منصبه الرفيع ، أم لمجرد أن طبيعته كانت باردة جوفاء ، فان هذا الرجل العجوز واصل السير دون أن يهزه شئ - رجل متعبد زاهد الى ، كان يشاد بمدحه بوصفه الفارس الأول فى مملكته والسيد النبيل الأول فى أوربا ••• وقد منيت الامبراطورية النمساوية فى عهده بضربات ساحقة عديدة ••• » •

فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع • ط ٧ • دار المعارف ، ٧٦ • صص ٤٤٢ - ٤٤٣ •

(٧) ليس هذا هو مصطلح العصر •

(٨) من الطبيعى أن يضع أهل شرق أوروبا من الأجناس التى توجد منها جاليات فى الأراضى التى تسيطر عليها مملكة النمسا والمجر تحت الحماية الامبراطورية كهذه الملكة ، ومن الطبيعى أيضا أن ترحب المملكة بذلك خاصة أنها كانت ذات أطماع توسعية •

(٩) نبات تنتهى أوراقه بحقائق صغير • (عن معجم المورد) •
(المترجم) •

(١٠) بعد خروج المسلمين من الأندلس بناء على أوامر كنسية او حكومية ، وخروج اليهود أيضا بناء على رغبة شعبية عارمة ، لم يجد

اليهود من ملجأ لهم إلا الدولة العثمانية ومراكش ، وبدا لأوروبا أن المسلمين واليهود في حاله وفاق ونحالف ، وكان الأمر كذلك بالفعل لنعرضهم (المسلمين واليهود) لمشاكل مشتركة ، ولم تكن أوروبا سعيدة بهذا التحالف حتى أنهم كانوا يشبهون المسلمين بـ "Sabbatho" . وقد نسل هذا التحالف حوالى قرنين من الزمان وقصد حمى اليهود من الإبادة ، أما نتائجه بالنسبة للمسلمين أو الدولة العثمانية فلم تكن على ما يرام ، فقد عمل اليهود في البلاط العثماني على منع ابن قنطار إسلامى مسيحي ، كما عملوا على ألا يتم صلاح عثمانى اسباني ، وكانت بعض الجهود قد تم بذلها فعلا على هذا الصعيد ، وكنا نلن أن مثل هذه الأفكار - ونعنى بها وجود تشابه خلقى (بكسر الخاء) وخلقى (بضم الخاء) بين المسلمين واليهود قد انتهت من العقل الأوربي بعد القرن الثامن عشر ، ولكننا نقرؤها مرة أخرى في رحلة ردولف (القرن ١٩) خاصة وأنه قارن في موضع آخر بين (المكر والغش) بين كل من المسلمين واليهود على سواء .

عما أوردناه في هذه الحاشية راجع :

- رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسيف) إلى مصر والحجاز ، ترجمة د . عبد الرحمن عبد الله الشفيخ (منشرة الان الهيئة العامة للكتاب - سلسلة الالف كتاب الثانى) .
- العثمانيون في أوروبا ، تأليف بول كولز ، ترجمة د . عبد الرحمن عبد الله الشفيخ . الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة الالف كتاب الثانى .
- رحلة فارتيميا (الحاج يونس المصرى) . الهيئة العامة للكتاب سلسلة الالف كتاب الثانى .
- دور المسلمين في انهك الاقتصاد الاسباني في القرن ١٦ وبداية ١٧ . تأليف د . عبد الرحمن عبد الله الشفيخ . مجلة جامعة الملك عبد العزيز - جدة . المجلد الأول ، ١٩٨٨ .

(١١) سكان مصر الأصليون عرب ، ويرى الرحالة العالم بيرتون أن قبيل مصر عرب تصجروا أى انعزوا لفترة بحكم أحالة الصحراء بالوادى والدلتا ، بل أن ردولف نفسه يذكر في موضع آخر من رحلته أن قبيل مصر لا يختلفون شكلا (فيزيقيا) عن المسلمين .

راجع :

- رحلة بيرتون لمصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ . (الترجمة الكاملة) سلسلة الالف كتاب الثانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (١٢) ما بين القوسين توضيح من المترجم .
- (١٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(١٤) راجع حاشية رقم ٤ .

(١٥) نوع من الأشغال الخشبية الدقيقة .

(١٦) رحلة ردولف -- كما هو واضح -- رحلة رسمية أو شبه رسمية فهو محاط من كل جانب بالمراقبين والمرافقين ولم يحاول -- ولا يستطيع -- أن يتغلغل تغلغلا حقيقيا فى صفوف الشعب ، ومن هنا القموة هذه الإجابة غير الحقيقية ، فهذه الظاهرة لا يخلو منها مجتمع على نحو أو آخر ، وهذه الطائفة من النساء قد تكون من النمسا أو غيرها .

(١٧) الامبراطور الرومانى ديوقليديانوس Diocletianus واسمه الاصلى ديوقليس ، توفى سنة ٣١٦ م . تعرض المسيحيون فى عهده لاضطهاد شديد ، لدرجة أن الكنيسة المرقسية القبطية فى الاسكندرية قررت فيما بعد جعل تاريخ تولى ديوقليديانوس بداية التقويم القبطى .

سيد الناصرى : تاريخ الامبراطورية الرومانية ، ١٩٧٨ ، ص ٤٢٠ - (المترجم) .

(١٨) ليس من الضرورى أن يكون كل الندابين مستأجرون ، وقد ذكر الأمير نفسه فى الفصل الأول أنه شيع أحد اصدقائه الى مثواه الأخير وأنه حزن لذلك حزنا حقيقيا ، وكان ذلك فى فينا ، وفى بلاد الشرق هناك من يحزنون للموتى حزنا حقيقيا .

(١٩) قلت هذه السبخات بمرور الوقت الامتداد العمران ، واستصلاح الأراضى ، بالإضافة لدور طمى النيل الذى كان يعمل على ردم بعض هذه السبخات . والسبب الاصلى فى وجود هذه السبخات والمستطحات المائية المألحة -- فيما يقول الجغرافيون -- أن البحر كان يطغى على الدلتا ثم يعود فينحسر عن مواحلها .

(٢٠) راجع حواشى الفصل الأول -- (المترجم) .

(٢١) الفجور فى مولد السيد البدوى ، وقبل ذلك على شرف الآلهة بياسستيس .

(٢٢) يمكن تفسير العبارة المتعاطفة التى ذكرها الأمير ردولف عن عباس حلمى باشا (١٨٤٨ - ١٨٥٤) انه كان مناهضا للنفوذ الفرنسى فى مصر ، ورقضه مشروع قناة السويس الذى تم ، على أية حال -- فى عهد سعيد باشا والخديو اسماعيل ، ويجمع المؤرخون أن عباس باشا حلمى لم يكن مرحبا بالنفوذ الاجنبى الأوروبى رغم استعانتة بالانجليز لإنشاء السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة والسويس . أما فيما يتعلق بمقتله فنفضل هنا نقل الروايات المختلفة التى أعاد عرضها عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عصر اسماعيل ج ١ :

« ٠٠٠ اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا في قصره ببغداد . وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف في روايه مقتله . ونيس عجيبا أن يختلف الرواة في ذلك ، فان قتل عباس كان نذبة مزمنة من مزمرات القصور ، وهذه المؤامرات لايسهل اكتساب حقيقتها ، او الإدراك على روايتها ، لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع في جنح الظلام : بعيدة عن الأنظار ، فلا يعرف الناس عنها الا ما تتناقله الأسنة بعد وفاتها : ومن هنا ينشأ الاختلاف في الرواية : ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، أحدهما نذكرها اسماعيل باشا سرهنك في كتابه (حقائق الأخبار على دول العباس ج ٢ ص ٢٦٥) والاخرى ذكرتها مدام أوليب اندرار فلما ترجمتها بمصر في أوائل عهد اسماعيل ودونتها في كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣) .

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك ، أن (عباس) كاتب له حاشية من الممالك يقرهم اليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم حراس منحه ، ولهم عنده من أنزله ما جعله يندق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز أكثرهم رتبة قائمقام وكان منهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ؛ وقد أساء هذا الرئيس معاملة أولئك الممالك ، فاستلموا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن ، فاتخذوا من حداثته مغمز الأقاويل . فسخط عليهم . وشكاهم الى مولاه ، فامر بجلدهم . فجلدوا ؛ وجردوا من ثيابهم العسكرية . واللبسهم خشن اللباس وأرسلهم الى الاصطبلات لخدمة الخيل . فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزائن عباس ، لأنهم كانوا من أتباعه المقربين اليه . فسعى بجده لدى سيده ليعفو عنهم . فلم يزل يادى الأمر بغيته . فلما ذهب عباس باشا الى قصره ببغداد يصحبه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا أن يطلبوا العفو عنهم ، فحلبا ذلك الى عباس . فأجاب ملتسهما . وأصدر أمرا بالعفو عنهم . وردهم الى مناصبهم . فجاءوا الى بنها ليرفعوا واجب الشكر للوزير . ولستهم اضمروا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم . فانتصروا به مع غلامين من خدمه السراى . يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكرك حسين . واتفق الجديع على قتله . وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من ممالكه . ففي ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولية سنة ١٨٥٤ م) كان الغلامان المذكوران يتوايان حراسته ، فجاء المؤتمرون في غسق الليل على اتفاق معهما . وفتحوا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الأمير . وهو نائم . ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصدفه عمر وصفى ، وتكاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه . ثم أوعزوا الى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتب المؤتمرون الخبر الى اليوم التالي ولما لم يستيقظ في موعدة دخل عليه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الألفى فوجداه مقتولا ، فدعرا لهذه المفاجعة ، واتفقا على إخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتل الى القاهرة في عربة ، ووصلا به قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

وأراد جماعة من انصار عباس • وعلى رأسهم ابراهيم باشا الألفى أن يجعلوا الحكم من بعده لسجله ابراهيم الهامى باشا الذى كان وثقته باوروبا • فانفقوا على استدعائه ليرأوه الصكك ، ويمنعوا عنه عصبه سعيد باشا أكبر انجال محمد على وأحق الأمراء بالولاية طليفا بالنظام القديم • وكان سعيد باشا وثقته بالاسكندرية ، يفيم بسراية بالقبارى • فكتبوا سرا الى محافظ الاسكندرية اسماعيل سليم باشا • وأبلغوه بما اتفقوا عليه • وبالذوا اليه الأفيام على النضر حتى يعرض الهامى باشا • فلما تلا الرسالة لم يشاء لهم رأيهم • أسلمه ان الحكم من حق سعيد باشا ، فقصده اليه من فور • وأذهب اليه فصرى الرسالة • فذكره سعيد باشا على إخلاصه • وذهب حصيته الى سراى رأس التين • وأعلن اعتلاءه العرش • وأجريت حفلة الجلوس • وأطلقوا المدافع • ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة بصحبة امراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا متعدين عن الماصمة لما بينهم وبين عباس من العداء والنفور ، فلما وصلوا الى القاهرة ذهب سعيد الى القلعة وتولى زمام الحكم •

تلك خلاصة رواية اسماعيل باشا سرهناك •

أما رواية مدام أولب أدوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلى هانم عمة عباس هى التى انتمرت به وهى فى الاستانة ، وأنشئت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما ، على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ، كى يشتريهما عباس ويدخلهما فى خدمته • وكان المملوكان على جانب من الجمال • مما يرغب وكيل الأمير فى شرائهما ، فجاء القاهرة فعلا ونزلا سوق الرقيق ، الى أن رأهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جملهما ، فاشتريهما وأدخلهما سراى مولاه ببناها ، فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراسته ايلا ، قالت مدام أولب أدوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنهما خشيا بأس عباس ، إذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، وخافا أن يقاومهما وينجو من فكتهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، ويوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فأنقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قواتهما لانقاذ القتل عند سنوح الفرصة • حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاها ، فاعتزما أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكذ يستغرق عباس فى النوم حتى انقضا عليه وقتله ، ولم يدعاه له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما ارتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطالبا الى السائس أن يجهز لهما فورا جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم فى الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما الى القاهرة ، ومن هناك فرا الى الاستانة ، حيث نقدتهما الأميرة نازلى مكافأة سخية على انقاذ المؤامرة •

وتقول مدام أولب أدوار أن الهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى بأحدهما فى الاستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ،

ولم يستطيع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على مكان ، وقيل انه اوى الى بلاد الارناؤود فرارا من القتل .

فالروايان ، مع اختلافهما فى بيان المحرضين على القتل وطريقة ارتكاب الجريمة متفقتان كما ترى فى ان عباس مات مقتولا اثر مؤامرة دبّرت لقتله وانفذت فى قصره ببها .

(٢٣) أجمع الرحالة الذين زاروا الشرق ان الخوف ، والخوف وحده ، هو الذى يجعل الشرقى يلزم حدوده ، ويتعبير سامى (يخاف ولا يختشئ) ، وقد أفاض الرحالة بيرتون فى وصف هذه الحالة خصوصا بالنسبة للموظف الشرقى ، ورفاق السفر ، كما أشار بعض هؤلاء الرحالة من خوف المصريين من ذوى المناصب الرسمية ، بل من مجرد زعيم الرسمى ، وقد يكون فى هذا بعض المبالغة ، والذى لا شك فيه ان دراسات جادة ومحايدة لم تتم ، حتى الآن لتفسير ذلك من منظور تاريخى ونفسى وأنثروبولوجى .

(٢٤) يقصد ما يعرف بحى مصر القديمة .

(٢٥) أكد الرحالة بيرتون هذا القول فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

راجع رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الألف كتاب الثانى .

(٢٦) مكان وقوف الشمامسة أمام حامل الأيقونات . انظر : ملحق المترجم (إبراهيم سلامة) لكتاب بتلر : الكناس القبطية فى مصر ، ج ٢ .

(٢٧) المقصود مسجد الحسين كما سيتضح من السياق .

(٢٨) مشربيات قوسية - اجتهاد من المترجم .

(٢٩) النص Scroll ، وفى معجم مصطلحات الفنون (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) تعنى « لفيفة مصورة » واثرا ما اوردناه فى المتن لموضوحه .

(٣٠) النص : السنة المحمدية .

(٣١) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(٣٢) ثمة خلاف فى أصل كلمة فسطاط ، ومن ذلك انها معربة عن الكلمة الاغريقية Fossatum وتعنى المدينة الحصينة وقد نقلها العرب عن البيزنطيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشام اثناء الفتح الاسلامى . لكن الكلمة وردت فى المعاجم العربية بمعنى الخيمة ، وفى المعجم الوجيز - على سبيل المثال - ان الفسطاط بيت يتخذ من الشعر ، وانها مدينة مصر العتيقة التى بناها عمرو بن العاص موضع فسطاطه .

انظر : المعجم الوجيز مادة فسطاط .

أيضا : أحمد مختار العبادي : أحداث مصر الإسلامية والمغريب.
والأندلس (ملحق بكتاب أزمنة التاريخ الإسلامي ج ١ : الكويت ، المجلس
الوطني للثقافة ؛ ١٩٨٢ . ص ٤٦٠) .

(٣٣) أحمد بن طولون .

(٣٤) جامع السلطان حسن ، هل حسن هذا سلطان ؟

(٣٥) لا نعرف لهذا أصلا .

(٣٦) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(٣٧) Arecu - ترجمها معجم الشهابي كوثل (بفتح الكاف
والثاء وتسكين الواو) أو كنتيه (بفتح الكاف وتسكين النون) وذكر أنه
جنس نبات للزينة من النخاميات ، وذكر منه أنواعا - (المترجم) .

(٣٨) طيور من فصيلة دجاجات الأرض فيما يقول صاحب معجم
الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية ، ويسميه الشوام شكب (بضم
الشين والكاف) وهو على أنواع - (المترجم) .

تعليقات المترجم

عن الفصل الثالث

- (١) ما بين القوسين توضيح من المترجم .
- (٢) عن معجم المصطلحات الزراعية للشهابى .

(٣) الهجرة البربرية الى مصر ، هجرة واسعة لم تحظ بالدراسة الكافية ، فقد اهتم الباحثون بهجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية الى مصر ، وكذلك هجرة بعض الشوام ، كما اشارت المراجع لاستيطان الأتراك وأهل الرومىلى (شرق أوروبا من المسلمين خاصة) ، أما هجرة المغاربة الى مصر واستيطانهم بها فهى لم تحظ بدراسة كافية ومن خلال هذه الرحلة يتضح أن عددا كبيرا منهم قد راحوا يجولون فى صحراء مصر الغربية ، واستقروا فى مصر والفيوم والصعيد ، مما يؤكد عمق الروابط المصرية بالمغرب العربى ، عمقا لا يقل عن ارتباطها بالشرق العربى - (المترجم) .

(٤) وصف ردولف منخفض الفيوم أكثر من مرة فى رحلته هذه بأنه واحة ، ويمكن التماس العذر له فى ذلك الوقت لأنه وجد الصحارى تحيط بالمنخفض من كل الجهات ، لكن الحقيقة أنه امتداد طبيعى لمادى النيل رغم أنه لا يختلف من حيث التكوين والشكل عن بقية المنخفضات الأخرى بالصحراء الغربية من حيث انخفاض القاع وانحدار أراضيه واحاطته بهضاب مرتفعة ، ومنخفض الفيوم متصل بمادى النيل عن طريق بحر يوسف وهو فرع قديم للنيل ، ويغذى طمى النيل وكان بحر يوسف يخرج من النيل مباشرة قرب ديروط ، ولكنه يستمد مياهه حاليا من ترعة الابراهيمية التى تم حفرها سنة ١٨٧٣ فى عهد الخديوى اسماعيل وتخرج من عند أسبوط ، ومن هنا فوصف ردولف لمنخفض الفيوم بأنه واحة Oasis خطأ واضح - (المترجم) .

عن جغرافية الفيوم أنظر على سبيل المثال :

- محمد السيد غلاب وآخرون : جغرافية مصر وحوض النيل . القاهرة ، وزارة التربة ، ١٩٩٥ ، ص ٣٢ .

(٥) اتفق كل الرحالة على هذه النقطة (لا شئ يسير فى الشرق ببساطة وهدهد ، وإنما لابد من تعقيدات نتيجة البلادة فى العمل ، أو نتيجة عدم الانضباط ، أو نتيجة طبيعة الموظف الشرقى الذى لا ينجح عملا إلا اذا تعرض لضغط أو خوف ، أو اشبع غروره بتذلل الآخرين له

أو تقاضى رشوة ٠٠٠) يشير لذلك بوضوح وتفصيل ، وها هو الأمير ردولف يشير لذلك من منظور آخر فى اواخر عهد الخديو اسماعيل وأشار قبلهما الرحالة فارتيما لمشيء كهذا - (المترجم) •

(٦) تأكيد آخر على عمق التأثيرات المغربية فى سكان مصر ، بحيث يمكن القول انه لا يقل ختيرا عن اثر القبائل العربية النازحة من شبه الجزيرة العربية •

(٧) ويسمى أيضا خضار (بضم الخاء وتشديد الضاد) ، وكلمة الرورار شائعة فى الشام ولكنها لم ترد فى كتب التراث العربية وهو من رتبة ملتصقات الأصابع • عن معجم الشهابى - (المترجم) •

(٨) طيط أو أبو طيط أو الزقزاق الشامى وهو طائر طويل الساق يعيش حول الأنهار والمستنقعات ويسمى بالانجليزية أيضا Lapwing • عن الشهابى - (المترجم) •

(٩) اسمه العلمى Charadius ويسمى بالعامية أحيانا (أبو الروس) وأحيانا دمشق (بفتح الدال وتسكين الميم) طويل الساق • وهو على أنواع : زقزاق ذهبى ، وزقزاق شامى ، وما ذكرناه فى حاشية سابقة •

(١٠) يلاحظ قارئ الرحلة إشارة ردولف كثيرا لمزارع قصب السكر ، والحقيقة ان الخديو اسماعيل توسع كثيرا فى زراعته لارتفاع أسعار السكر اثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، وزادت العناية بزراعة القصب بعد تراجع أسعار القطن عقب انتهاء الحرب الأمريكية ، واستحدث اسماعيل صناعة السكر وأكثر من مصانعه حتى لا تعتمد البلاد على القطن وحده كمصدر للدخل • الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ١٦ •

(١١) حجل ويسمى أيضا قبيج (بفتح القاف والباء) ، والمفرد حجلة ، وهو على أنواع : دراج (بضم أوله وتشديد الراء وفتحها) وحجل رومى وحجل أشهب ٠٠٠ الخ •

عن معجم الشهابى - مادة Partridge (pedix) - (المترجم) •

(١٢) ويسمى أيضا سقاوة (بفتح السين والقاف) وهو من رتبة الجوارح - عن معجم الشهابى - (المترجم) •

(١٣) اغان حزينة ، وهى أغانى أصحاب القوارب والعاملين عليها غالبا •

(١٤) من أسمائه المعجمية أيضا حوصل (بتسكين الواو وفتح الحاء والصاد) وذلك لأن له حوصلة كبيرة - (المترجم) •

(١٥) حاشية سابقة - (المترجم) •

(١٦) حاشية سابقة - (المترجم) •

(١٧) رغم تحذير صاحب المعجم الزراعى من ان الناس يترجمون Eagle على انها نسر وهو خطأ ، فقد أوردنا فى المتن ما اعتاد عليه الناس ونورد هنا التصحيح الذى ينبهنا له معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية :

Eagle تعنى العقاب (بضم العين) ، ولا يصح ترجمتها نسرا لأن النسر هو Vulture ، والعقاب كلمة مؤنثة تطلق على الذكر والأنثى ، وهى من رتبة الكواسر وفصيلة الصقريات ، وهى على أنواع :

— عقاب رخماء بيضاء الرأس •

— عقاب ذهبية •

— عقاب البحر •

— صرارة (بفتح الصاد وتشديد الراء وفتحها) •

راجع المادة بالتفصيل — (المترجم) •

(١٨) من الفصيلة السنورية ورتبة اللوامح ، وهو حيوان مفترس •
عن الشهابى — (المترجم) •

(١٩) وهى على انواع : انجليزية ، أفريقية ، لا ورقية تنمو وهى الصحارى وعلى السواحل ، وطرفاء عقداة أو مفصلية وهى الأثل ويذكر صاحب معجم المصطلحات الزراعية انواعا كثيرة ، والمقصود غالبا هو ما يعرف فى مصر بأشجار السنط — (المترجم) •

(٢٠) الغره ساقها طويلة وتعيش فى مياه المستنقعات • راجع مادة Fulica فى معجم المصطلحات الزراعية — (المترجم) •

(٢١) Peat والخث بضم الخاء هو الطحالب اذا يابس وقدم عهده ، والكلمة أيضا تعنى التراب العضوى الناتج من تحلل بعض النباتات المائية كالطحالب ويسمى فى مصر (الأشنة) بفتح الألف والنشين وهو الحزاز (بفتح الحاء وما بعدها) كما يسمى فى مصر أيضا — (المترجم) •

(٢٢) طائر يصاد ، طويل الساق ، غير الدجاج الداكن — (المترجم) •

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	إعلام الاعلام وقصص اخرى
ي . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلي	تقنية مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا في مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الأرض الشامخة
والتر ألين	الرواية الانجليزية
لويس فارغاس	الرشيد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	الغصة محض
د . قدرى حنفى وآخرون	الإنسان المصري على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الثقافة القومية في انسيما العربية
ديفيد وليام ماكوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نفسي - ومطلق
د . محسن جاسم الموسوي	نصوص الرواية - مقال في النوع الأدبي
أشرف س . بي . كوكس	شيلان توماس
جون لويس	الإنسان ذلك الكائن الغريب
جول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطي شعراوي	المسرح المصري المعاصر
أنور المعداوي	على محمود طه
بيل شول وأدنبيرت	الثقافة النفسية للأهرام
د . هفاء خلوصي	فن الترجمة
ألف نى ماتلر	تاريخ الموسيقى
فيكتور برومبير	الاستاد

- رسائل وأحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات فى مضممار
الفيزياء الذرية)
التراث الشامى ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائى عند تولستوى
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات
اعلام الحرب فى الكيمياء
فكرة المسرح
الجحيم
صنع القرار السياسى
التطور الحضارى للإنسان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
النحل والطب
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن
التشكيلى
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
- فيكتور هوجو
فيرنر هيزبج
سدنى هوك
ف . ع . أدنيكوف
هادى نعمان الهينى
د . نعمة رحيم العزاوى
د . فاضل أحمد الحلاوى
خلال العشرى
هنرى باربوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
د . روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . سبنسر
د . ناعوم باتروفيتش
حوزيف دامموس
د . لينوار تشاسرن رابى
د . هون شنلر
بيير البيير
الدكتور غبريال وهبه
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
فرانكلين ل . باومر
شوكت الربيعى
د . محبى الدين أحمد حسين

تأليف : ج . دادلى اندرو

جوزيف كونراد

د . جوهان دروشنر

طائفة من العلماء الأمريكيين

د . السيد عليوة

د . مصطفى عناني

صبري الفضل

فرانكلين ل . باومر

جابريل باير

انطوني دى كرسبني

دوايت سوين

زافيلسكي ف . س

ابراهيم القرضاوى

بيتر رداى

جوزيف داهموسر

س . م بومرا

د . عاصم محمد رزق

رونالد د . سمبسون

ونورمان د . اندرسون

د . انور عبد الملك

ولت وتيمان روستو

فريد . س . هيس

جون بوركهسارت

الان كاسييار

سامى عبد المعطى

فريد مويرل

شاندر ا . يكراماسينج

حسين حامى المهندس

روى روبرتسون

دوركاس ماكلينتوك

مشم انتحاس

تظريات الفيلم الكيرى

مختارات من الادب القصصى

الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟

حرب الفضاء

ادارة الصراعات الدولية

الميكروكمبيوتر

مختارات من الادب الياباني

الفكر الاوربي الحديث ٢ ج

تاريخ ملكية الاراضى في مصر الحديثة

اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للسينما

الزمن وقياسه

اجهزة تكييف الهواء

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

التجربة الدستورية

مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

العلم والطلاب والمدارس

الشارع المصرى والفكر

حوار حول التنمية الاقتصادية

تبسيط الكيمياء

العادات والتقاليد المصرية

التذوق السينمائي

التخطيط السياحي

البذور الكويتية

دراما الشاشة (٢ ج)

الهيرويين والايدز

صور افريقية

نجيب محفوظ على الشاشة

د . محمود سرى طه
بيتر لورى
بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
الحمد محمد الشنوانى
جمعه : جرن ر . بور
وملتون جولدنيجر
ارنولد توينبى
د . صالح رضا
م . ه . كنج وآخرون
جورج جاموف
د . السيد طه ابو سديرة
جاليليو جاليليه
اريك هريس وآلان هو
سيريل الدريد
آرثر كيستار
جون بور
ب . كومان
ر . ج . فوريس
توماس ا . هاريس
مجموعة من الباحثين
روى ارمز
ناجى متشبي
بول هاريسون
ميخائيل البى ، جيمس لفوك
فيكتور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
ابو الفاسم الفردوسى
بيرتون بورتر
محمد فزاد ، كوبرلى

الكيموتر فى مجالات الحياة
المشدرات حقائق اجتماعية وفسيه
وظائف الاعضاء من الالف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية اسماك الزينة
كثير غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
الفلسفة وقضايا العصر (٢ ج)
الفكر التاريخى عند الاغريق
قضايا وملاحق فى الفن التشكيلى المعاصر
النقدية فى البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين
لكون
الارهاب
اخناتون
التياسة الثالثة عشرة
الفلسفة وقضايا العصر (ج)
الاساطير الاغريقية والرومانية
تاريخ العلم والتكنولوجيا
التوافق النفسى
الدليل البيولوجى فى
لغة الصورة
الثورة الاصلاحية فى اليابان
المسلم الثالث عشر
الانقراض الكبير
تاريخ النقود
التحليل والتوزيع الاوركستراالى
الشاشنة (٢ ج)
الحياة الكريمة (٢ ج)
قياس الدولة العثمانية

ادوارد ميرى	عن النقد السينمائي الأمريكى
اختيار / د. فيليب عطية	ترانيم زرادشت
اعداد / موني براج وآخرون	السينما العربية
آدامز فيليب	دليل تنظييم المتاحف
نادين جورديمر وآخرون	سقوط المطر وقصص أخرى
زيجمونت هبز	جماليات فن الإخراج
ستيفن أوزمنت	القاريخ من شتى جوانبه (٢ ج)
جوناثان ريلى سميث	الحملة الصليبية الأولى
توني بار	التمثيل للسينما والتلفزيون
بول كولز	العثمانيون في أوروبا
موريس بير براير	صناع الخلود
الفريد ج. تبار	الكنائس القبطية القديمة في مصر (٣ ج)
رودريجو فارتيجا	رحلات فارتيجا
فانس بكارد	افهم يصنعون الميخى (٢ ج)
اختيار / د. رفيق الصبان	في النقد السينمائي الفرنسي
بيتر نيكوللز	السينما الخيالية
برتراند راصل	السلطة والفرد
بيارد دودج	الأزهر في ألف عام
ريتشارد شاخ	رواد الفلسفة الحديثة
ناصر خسرو علوى	سفر قامه
نفتالى لويس	مصر الرومانية
جاك كرابس جونيور	كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر
هربرت شيلر	الاتصال والهيمنة الثقافية
اختيار / صبرى الفضل	مختارات من الآداب الآسيوية
أحمد محمد الشنوانى	كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)
اسحق عظيموف	الشموس المتفجرة
لوريتو تود	مدخل الى علم اللغة
اعداد / سوريال عبد الملك	حديث النهر
د. ابرار كريم الله	من هم القطار

اعداد / جابر محمد الجزائر	ماستريخت
هـ ج ٠ ولز	معالم تاريخ الانسانية ٤ ج
جوستاف جرونياوم	حضارة الاسلام
ستيفن دانسيماو	الحملات الصليبية
أرنولد جزل	الطفل ٢ ج
بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
برنسلو مالمينوفسكى	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ٠ ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهرية
فرانسيس ج ٠ برجن	الاعلام التطبيقي
جى كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
الفين توفلر	تحول السلطة
توماس ليبهارت	فن المايو والبانتوميم
اعداد كريستيان سالين	السيناريو فى السيمما الفرنسية
بول وارن	خفايا نظام النجم الأمريكى
الحاج يوسف	رحلة جوزيف تبسى
اعداد محمود سامى عطا الله	الفيلم التسجيلى
جورج سثنانير	بين تولستوى ودووستويفسكى
كريستيان دى روشى	المرأة الفرعونية

مطابع انهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٤٠ / ١٩٩٥

ISBN . - 977 - 01 - 4613 - 7

قام الأمير النمساوي ريتولد برجلته لمصر والقدس في أواخر عهد
الخدويو إسماعيل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف
معظم المدو المصرية وأشار إشارات مفيدة للآثار ونشر ترجمات
رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعد مغادرته مصر توجه إلى
حيفا ومنها زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف
الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدى إعجابا بروح التسامح في
القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة
كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدى رأيه فيها